كامل كيلاني

قصص علمية

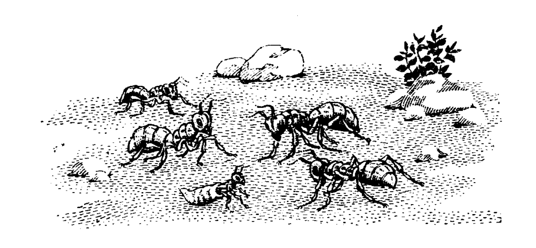
مخاطرات أم مازن

الطبعة التاسعة



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .



١ — فاتِحَةُ القِصَّةِ

ما كانَ أسعدَهُ يومًا ، وأبْهَجَهُ احتفالًا ، حِينَ خرجت « أمُّ مازنٍ » من لفائِفها ، لتَسْتَقْبِلَ الْحياةَ بقَلْبٍ طَروب ، يَفيضُ بِشرًا وأملًا ، وقد التَفَّ حَوْلَها أهلُها وعشيرَتُها الأدْنَوْنَ ، وتهافتوا إلى رُؤْيتها مُسْرعينَ من أقاصِي القَرْيَةِ ، ليشتركوا فى ذلك المِهْرَجانِ البهيجِ .

وكانت « أمُّ مازنٍ » أصغرَ المَوْلُوداتِ التى نَجُبَتْ وترعرعت فى تلك القرية ، الحافلةِ بأهلِها من النَّمل الأسْوَدِ الرَّمادِيِّ .

وقد فرِحَتْ ساكناتُ القرْية بـ «أمِّ مازنٍ» فرحاً عظيماً. وكانت قريةُ النمل مُعْجَبَةً بوَسامَةِ هذهِ المولودةِ، فرِحةً بما يَبْدُو عَلَى سيماها من أمارات النَّجابَةِ، مُؤَمِّلَةً فيها أحْسَنَ تأميل.

٢ — بنتُ الشيْصَبانِ

واقتربتْ منها «بنْتُ الشيْصَبان»، وهى أكبَرُ نِمالِ القرية سِنّاً، وأكثرُهُنَّ تجْرِبَةً، وأقبلتْ على الطِّفْلةِ الناشئةِ تُداعِبُها، قائلةً:

«يا لَها مِنْ جَمِيلةٍ فاتنةٍ! لقدْ فاقَتْ — على صِغَرِها — بنات جِنْسِها: حُسْناً ومَلاحةً. فَلْنُطْلِقْ عَلَيها مُنْذ الْيَوْمِ: «أمَّ مازنٍ»، ولْنُنادِها بذلكِ، لنكرِّمها بهذه التَّكْنِيَةِ، ونُمَيِّزَها عَنْ رَفيقاتِها من بناتِ القرية.»

وكانَتْ «أمُّ مازنٍ» — كإخوتها جميعاً مِنَ النمْل — مِثالًا للنَّشاط والجِدِّ والمُثابَرَةِ، تَتَلألأُ فى رأْسِها الْجميلِ عُيُونٌ خَمْسٌ برَّاقَةٌ، ثِنْتان مِنْها كبيرتان على جانِبَيْ رَأسِها، وثلاثٌ صغيرَةٌ فى وَسَطِ جَبْهَتِها.

ولن يَفوتَني أَنْ أُحَدِّثَكُمْ عن قَرْنَيْها الصَّغيرَيْنِ النابِتَيْنِ في رأسِها .

ولعَلَّكم تَعْرِفونَ أن القُرُونَ للنمل، كاليَدَيْنِ للإنسانِ ؛ فإنَّ كُلًّا مِنْها يصْلُحُ للَمْسِ الأَشْياء .

٣ — في الطَّريق

وخرجَتْ « أمُّ مازنٍ » منْ قَرْيَتِها ، للْمَرَّةِ الأولَى في حياتِها . ثُمَّ سارَتْ في طَرِيقِها — عائِدَةً إلى بيتِها — بعد أن أتَمَّتْ نُزْهتَها . وما زالتْ تَمْشِي مُتَّئِدَةً ، بَطِيئَةَ السَّيْرِ في طريق مملوءةٍ بالحَصَى ، وهي تَلْقَى في سبيلِها ، من أَلْوانِ التَّعَبِ والعَناء ، ما لا قِبَلَ لغيرِها باحتِماله .

ولاعَجَب في ذلك ، فإن صِغارَ الحَصَى التي كانَتْ تَعْتَرِضُ « أمَّ مازنٍ » في طَرِيقِها ، هي — على الحَقِيقَةِ — جِبالٌ شاهِقَةٌ بالقِياسِ عَلَيْها !

أنظروا إليها ، وهي تَمْشِي جادَّةً مُسْرِعَةً في سيرِها ، على قَدْرِ ما تستَطيع

أقدامُها النَّحيفةُ المُتناهيةُ فى الضآلةِ . وتأمَّلوا : كيفَ تَلمُسُ الأرْضَ بأحَدِ قَرْنَيْها ، قَبْلَ أن تخطُوَ خُطْوَةً واحدةً . فهى تتَحَسَّسُ الأشْياءَ بقَرْنِها الأيْمَنِ مَرَّةً ، وبقرنِها الأيْسَرِ مَرَّةً أخرى ، مُسْتَهينَةً بكلِّ ما تَلْقاهُ فى طريقها من العَقَباتِ والمَصاعِبِ ، مُتَقَدِّمَةً — فى صَبْرٍ ومُثابرة لا مَثيل لهُما — حتى تَبْلغَ غايتَها ، أو تموتَ دُونَها !

وكانت « أمُّ مازنٍ » تُحَدِّثُ نَفْسَها ، قائلةً :

« يا لَها منْ طَريقٍ مُتْعِبَةٍ شاقَّةٍ ! فليْسَ يَخْلُو مَكانٌ فيها من حُفْرَةٍ ، أو هاويةٍ ، أوْ أُخْدُودٍ . وليْس أجْدَرَ منِّى بالأناةِ والحَذَرِ ، حتى أعودَ إلى قَرْيَتِى سالِمَةً ! »

ولقد صدقَتْ « أمُّ مازن » فيما حدَّثتْ نفسَها بهِ ، فقد كانت الطريقُ الوعْرَةُ المَخُوفَةُ ، تتطلَّبُ مهارَةَ النَّمْلَةِ وحزْمَها ، لتَخْرُجَ منها ناجيَةً من كلِّ سُوءٍ ، فلا تُكْسَرَ إحدَى أرْجُلِها ، ولا تصابَ بأىِّ عَطبٍ .

ولقد أصابَ وصدَقَ من سَمَّاها : نَمْلَةً . فهى — فى الحَقِّ — كثيرةُ التَّنَمُّلِ ، دائبةُ التَّحَرُّكِ . فلا عَجَبَ إذا أطلقوا عليها هذا الاِسمَ الذى يَدُلُّ على الحَرَكَةِ والنَّشاطِ !

ها هُوَ ذا جَبَلٌ تَتَسَلَّقُهُ « أمُّ مازنٍ » ، جادَّةً مُثابِرَةً — عَلَى ما تُحِسُّ به من تعَبٍ نَهَكَ قُواها ، وأضْنَى جسمَها — حتى تُدْرِكَ غايتَها .

٤ — الرَّفيقتان

وإنَّها لتَسيرُ جادَّةً ، وقَدْ بَلغَ بها الإعْياءَ كلَّ مَبْلَغٍ ، إذْ لَمَحَتْ نَمْلتَيْنِ — من بنات جِنْسها — خَرَجَتا منَ القَرْيةِ للاحْتِطابِ ، وقد حَمَلَتا فَرْعاً صغيرًا من فُرُوعِ النَّباتِ ، وهما عائدَتان فى طريقهما إلى البَيْتِ .

ولقد جَهَدَهُما حَمْلُ هٰذا الفرْعِ الصَّغير ، وقَد اعتزمَتا أن تُصْلحا به إحْدَى غُرَفِ القَرْيَةِ التى انهارتْ فى أثناء الليل . وكان ذٰلك الفرعُ — بالقِياس إليهما — كأنَّهُ جِذْعُ شَجرَةٍ كبيرة !

وكانت الحاطِبَتانِ تَبْذُلانِ أقصى جُهْدَيْهما لتَجُرَّاه ، حتى ضَعُفَتْ قُواهُما ، وتعذَّرَ عليهما أن تتقدَّما به خُطوةً واحدة إلى الأمام . ولا عَجَبَ فى ذٰلك ، فقد كان — على صِغَرِه — ثقيلًا ، وكانتِ الأرضُ — الَّتى تَدِبَّان عليها — صَخْرِيَّةً .

فلما رأَتْهُما « أمُّ مازنٍ » عَرَفَتْهما ، وأدركتْ ما تُعانيانِ من جَهْد ، فتقدمتْ إليهما ، قائلةً :

« كيف أنتما ؟ هَلُمَّا نتعاونْ على جرِّ هٰذا الْحِمل الثقيل ! »

ولم تضِعْ « أمُّ مازن » وقتها عَبَثاً ، بل انضمَّتْ إلى الحاطِبتَيْنِ ، وعاونتْ رفيقتيْها على جرِّ الفرعِ ، حتى بَلَغْنَ به ذِرْوةَ التَّلةِ الصغيرةِ العاليَةِ .

ثم قالت « أمُّ مازنٍ » لِرَفيقَتَيْها :

« لقد أدَّيْتُ واجبي — يا رفيقَتَيَّ — فوَداعاً ، وإلى اللِّقاءِ القريب ! »

فشكرَتا لها ما بَذَلَتْ — في مُساعدَتِهما — من جَهْدٍ وعَناء .

٥ — المَــــطر

ثم سارتْ « أمُّ مازن » في طريقها ، حتى لَقِيَتْ جَمْهَرَةً من النَّمْلِ ، جادَّةً في السَّيْرِ . ورأَتْ إحداها تَحْمِلُ ولدَها الصغيرَ ، وقد احتضَنَتْه في ثوبها الشَّفَّافِ . ورأَتْ جماعةً أُخرى تحمِلُ أعواداً صغيرةً — في مثلِ أحجامِ الإِبَرِ — من شجرِ الشَّوحِ ، وبقايا ورَقِ الأشجارِ الأخرى .

وإنها لسائرةٌ في طريقِها — وادعةً قريرةَ النفسِ — إذْ سمِعَتْ جَلْجَلَةً تُدَوِّي في الفَضاء ، فقفَزَتْ خائفَةً مذعورةً . ولم تدْرِ مَصْدَرَ تلك الجَلْجَلَةِ الرَّاعِدَةِ ، لأنها لم تسمعْ صوتَ الرَّعْدِ ، قبلَ اليومِ .

وذُعِرَت رفيقاتُها النِّمالُ التي كانت تسعَى بين الحشائشِ . . وأسرعت إلى قريتِها عائدَةً ، حين سَمِعَتْ قَصْفَ الرُّعودِ المُدوِّيَةِ .

أمَّا صاحبتُنا « أمُّ مازنٍ » فقد سَرَتِ الرِّعْدةُ في جسمِها ، من فَرْطِ الخَوْفِ ، وأسرعَتْ في جرْيِها صَوْبَ البيتِ . ولكنها لم تكَدْ تُكمِلُ عشرَ خُطُواتٍ ، حتى أحَسَّتْ كأنَّ هِراوةً ضَخْمةً هوَتْ على رأسِها بضربةٍ قاتلةٍ . فصرخَتْ من فرْطِ الألمِ والخوفِ ، وهي تتدحرَجُ على الأرض :

« آه ! لقد تحطَّمْتَ ، يا رأسِيَ المِسْكينَ ! »

ولم تكن هٰذه الضربةُ القاتلةُ التي كادتْ تُذْهِلُ « أمَّ مازن » إلَّا نقطةً كبيرةً منَ المَطرِ . ثم تبعتْها نقطةٌ أخرى فوق ظهرها . ثم ثالثةٌ ، ثم توالت قطراتُ المَطرِ . فاشتَدَّ جزعُ « أمِّ مازن » ، وأيقنتْ بالهلاكِ . وصاحت مُغوِّثةً تطلبُ النجدةَ ، وقد تَملَّكها الذُّعْرُ : « أغيثوني ! أدركوني ! النجدةَ يا رفيقاتي ، فإن أعدائي تأتَمِرُ بي لِتَقْتُلَني ! »

فلم يسمعْ صِياحَها أحدٌ ، وذهبَ صُراخُها أدراجَ الرِّياح . فأسرعت — في جرْيِها يَمْنَةً ويَسْرةً — وهي لا تدري : إلى أين تقصِدُ ، وقد غمرَ المَطرُ كلَّ مكانٍ ، والتصقتْ أرجلُها بِجِسْمِها الصغيرِ .

ولكنها رأتْ — لِحُسْنِ حظِّها — حَقلًا على قِيدِ (مَسافَةِ) خُطُواتٍ منها .

ولاحتْ أمامَها سنابلُ القمحِ الذهبيَّةُ فَخُيِّلَ إليها أنه غابةٌ . فأسرعت إلى الْحَقْلِ ، لتأمَنَ غائلةَ المطرِ .

٦ — بين سنابل القمحِ

ومشتْ « أمُّ مازن » بين سنابِلِ القمحِ ، تبحثُ عن مكانٍ جافٍّ ، ثم وقفتْ تسترِقُ السَّمْعَ ، وتقول في نفسِها :

« تُرَى هل بلغْتُ الْمَأْمَنَ ؟ ترَى هل يُفاجئُنى أحدٌ من أعدائى فى هٰذا المكانِ ؟ تُرَى ماذا تخبّؤُه السنابِلُ العاليةُ من مُفاجئات ؟ ما أظنُّ أحداً فيها، فإنى لا أسمعُ حركةً لكائنٍ كان . فلأَبْقَ وحيدةً فى هٰذا الحَقْلِ الأمينِ . »

ولكنها شعرَتْ بالبَرْدِ يَسْرِى فى جسمِها . فاشتدَّ ندَمُها على خرُوجها فى ذٰلك اليومِ ، وضاعف حُزْنَها أنها بَعُدَتْ عن بيتها ، وتعذَّرَتْ عودَتُها إليه .

وقالت تُناجى نفسَها ، وتلومُها على مُخاطَرَتِها :

« لا شكَّ أن أَخَواتى سيتألَّمْنَ ، ويَقْلَقْنَ بالُهُنَّ لِغَيْبَتى ... ولكنْ ماذا أَرى ؟ إنى لألمَحُ أشبَهَ شىءٍ بالسَّطْحِ فوق هٰذه السنابِلِ ... مَرْحَى ! فقد وجدْتُ بُغْيَتى ، فلأتسلَّقْ هٰذه الساقَ الطويلةَ ، لأُصْبِحَ آمنةً من كلِّ خطرٍ . »

ولكنها لم تكد تفعلُ ، حتى سمعت صوتًا راعبًا ، يصيحُ قائلا :

« مَن القادمُ ؟ »

فارتعدتْ « أمُّ مازن » وأصبحت — من فرْط خوفها — بمَنْزِلَةٍ بين الحياة والموتِ ، وتَدَحْرَجَتْ إلى الأرضِ مُسْرِعَةً .

ثم نظرتْ « أمُّ مازن » ، فرأتْ دابَّةً سمراءَ اللونِ ، هابطَةً من سُوق القمح . وأنعمَتِ النظرَ فيها ، فرأتها هائلةَ الجِرْمِ ، طويلةَ الجسمِ ، مُحَدَّدَةَ الرأسِ ، تَمْشى على أربعٍ ، ولها ذنبٌ صغيرٌ ، وعينان برَّاقتان .

فقالتْ « أمُّ مازن » ، بصوتٍ متهدِّج ، وقد استولى عليها الذُّعْرُ :

« عَفْوًا ياسيدتى ، واصفَحى عن زلَّتى ، فإنها غيْرُ مُتعمَّدَةٍ . . . وها أنتِ ذى تَرَيْنَنى مُبَلَّلةَ الجسمِ ؛ وقد أصبَحْتُ أجدرَ مَخْلُوقةٍ بالعطفِ والرِّثاء . وقد أَوَيْتُ إلى هذا المكانِ — لَحْظَةً يسيرةً — لعلِّى آمَنُ الأخطارَ ، وأَتَّقِى الغَوائلَ . ولم أَكدْ أستقرُّ تحت السنابل . . . »

فقاطعَتْها الدابةُ السمراءُ قائلةً : « لعلك تَعْنِينَ بيتَنا ! »

فقالت « أمُّ مازن » : « عُذرًا — يا سيدتى — وصفْحًا . فإن المَطَرَ قد كَفَّ عن الهُطول ، فيما أظنُّ . وفى قُدْرتى أن أعودَ أدراجى ، إذا أَذِنْتِ لى ، حتى لا أُزْعِجَكِ . »

فقالتْ لها الدابّةُ السمراء :

« تريَّثى قليلًا ، فلن آذنَ لكِ ، قبل أن أسألَ أُمّى فى أمركِ ! »

فقالت « أمُّ مازن » : « كلّا ، كلّا — يا سيدتى — لا تناديها ، ودعينى أمضِ فى سبيلى ؛ فإنى جدُّ خائفةٍ . وحُقَّ لى أن أخافَ ، فإن هٰذه هى أولُ مرَّةٍ أَخرجُ فيها من قريَتى . . . ولستُ أعرفُ أحدًا . . . . »

فقالت الدابَّةُ السمراء : « إنى أجهَلُكِ ، ولا أعرفُ أىَّ مَخلوقٍ أنتِ . فمن تكونين ؟ »

فقالتْ لها « أم مازن » : « أنا نملةٌ صغيرةٌ سوداء . . . . »

فصاحت الدابَّةُ : « نَمْلَةٌ أَنْتِ ؟ كلّا ، وكذَبْتِ فى زَعْمِكِ . فإن أُمّى قد أرتنى نَمْلَةً — ذاتَ يوم — لها أربعةُ أجنحةٍ بيضٌ . ولستُ أرى لكِ أجنحةً . . . وهٰذا دليلٌ على أنك لستِ نملةً كما تزعُمينَ ! »

فقالتْ لها « أمُّ مازن » :

« كلّا ، يا سيِّدَتى ، فإنِّى لمْ أَكذِبْكِ شيئًا مما قلتُ . . . وإنَّما أنا نَمْلَةٌ عاملةٌ . . . وليس لبناتِ جنسى أجنحةٌ ، ما عدا الآباء والأُمَّاتِ أمَّا العاملاتُ — من مثيلاتى — فلا أجنحةَ لهُنَّ . »

فقالت الدابةُ السَّمْراء :

« أَعاملةٌ أنتِ إِذَنْ ؟ شَدَّ ما تُضْحِكينني بهٰذه المُداعبةِ الظريفةِ ! إِنى لأَحارُ ، إذا حاولتُ أن أتعرَّفَ : أىَّ فائدةٍ تعودُ على أحدٍ ، من حشرةٍ صغيرة فى مثل ضآلتك ؟ وماذا يستطيعُ مثلُك أن يَعْمَلَ وهو بهٰذه الحَقارَةِ ؟ »

فأجابتها « أمُّ مازنٍ » : « إنَّنى لمَّا أَبْدأْ عَمَلى كلَّهُ . فلم أَزَلْ حديثةَ عهْدٍ بالدُّنيا ، ولقدْ دَهِمَتْنِىَ العاصِفَةُ ، ولَمْ أَكَدْ أَنْتهى من حَلْبِ بقَراتِنا . »

فعجبتِ الدابَّةُ السَّمْراء ، وقالتْ لها ، جِدَّ مَدْهُوشَةٍ :

« أىَّ بَقراتٍ تَعنينَ ، أيَّتُها البَلْهاء ؟ أَهى بقراتٌ حقيقيَّةٌ ، ذاتُ قُرُونٍ ، كالتى نراها فى الحقول ؟ شَدَّ ما طوَّحَ بكِ الْخَيالُ ، فأصْبَحْتِ تَسْبَحِينَ فى عالم الأحلامِ ، أيتُها الصَّغيرةُ الْحَمْقاء ! كيفَ تحاولين أن تُقنعينى أنَّ نَمْلَةً ضئيلةً مثلَكِ تستطيعُ أن تَحْلُبَ بقرةً كبيرَةَ الْحَجْم هائلةَ الْجِرْمِ ؟ . . . ها ها ها . . . ! »

فقالتْ « أمُّ مازنٍ » : « إنَّ بقراتِنا — يا سيِّدتى — صغيرةٌ جدًّا .

إنَّها — لو عَلِمْتِ — براغيثُ ، ضئيلةُ الْحَجْمِ ، تَعيشُ فَوْقَ الأشْجارِ . وقد كنتُ — اليومَ — أُداعبُها بقَرْنَىَّ مُتَلَطِّفَةً ، فيَدُرُّ جسمُها علىَّ

قطراتٍ لذيذةَ الطَّعْمِ ، فى مثل حلاوةِ السُّكَّر .

ولَقَدْ شَعَرْتُ الآنَ بألم الجوع . فهل تأذنين لى — مُتَفَضِّلَةً — أنْ أَعُودَ إلى بَقَراتى ، فأحلُبَها ، وأَستَدِرَّ منها طَعامىَ الشَّهِىَّ ، ثم نلتقىَ بعدُ ؟»

فاقتربت الدابةُ السَّمْراءُ من « أمِّ مازنٍ » ، ونظرتْ إليها بعينيها الكَبيرَتَيْنِ ، ثم قالتْ لها :

« كلا . . . كلَّا . . . لَنْ آذنَ لكِ فى الذَّهاب ، ولن أسمحَ لكِ بالانصرافِ ، قبلَ أنْ تُخْبِرِينى باسمِكِ . »

فارتاعتْ « أمُّ مازن » المِسْكِينَةُ ، وتراجعتْ إلى الوَراء مَذْعُورَةً .

فقالتْ لها الدابَّةُ السمراءُ : « هَلُمِّى ، فَخَبِّرِينى باسْمِكِ . . . أجيبى ! »

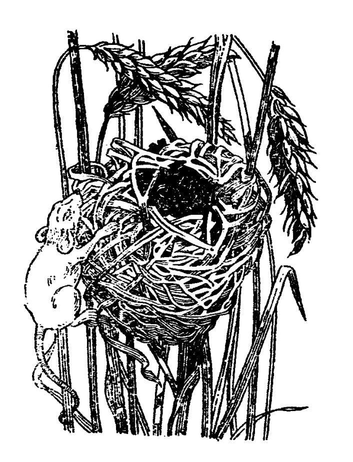
فأجابتها بصوتٍ خافتٍ مَحْزُون : « اسمى : أمُّ مازن . »

فقالت لها الدابَّةُ السَّمراءُ : « أما أنا ، فَيدعونَنى بـ « أمِّ راشدٍ » . »

فقالت « أمُّ مازن » : « ما أبْدَعَها كُنْيَةً ، يا عزيزتى : أمَّ راشد ! »

فاهتزَّتْ « أمُّ راشد » قائلةً :

« إنى فأرةٌ صغيرة ، أسكنُ مع أهلى هٰذا العُشَّ الذى تَرَيْنَه فوقَ رأْسَيْنا . »



فنظرَتْ « أمُّ مازن » ، فرأتْ — فى أَعْلى سنابلِ القمح — كُرَةً كبيرَةً معلَّقةً بينها. فصاحت مَدْهُوشةً :

« كيف تقولين ؟ أهٰذا هو عُشُّكِ ، يا « أمَّ راشدٍ » ؟ إنه لا يُماثلُ بيوتَ النملِ . »

٧ — « أمُّ أَدْراص »

وصاحت « أمُّ راشدٍ » تنادى أُمَّها بأَعْلَى صوتِها . فخرجَتْ من العُشِّ فأرةٌ أكبرُ منها ، ثم قالتْ لها ، وهى تُدانيها :

« آه ! ها أنت ذى ، يا بُنَيَّتِى العزيزةَ . وقد كنتُ فى قلقٍ عليكِ — يا « أمَّ راشد » — فما تصنعينَ هنا وحدَكِ ؟ »

فأجابتها « أمُّ راشد » :

« لستُ هنا وحدى ، يا أمى . فانظرى إلى هٰذه الزائرةِ الصغيرةِ . »

فقالت « أمُّ أدراص » :

« آه ! صدقتِ ، يا « أمَّ راشد » ، فإنها نملةٌ . وما أظنها إلا شاردةً ضلّت الطريقَ إلى بيتها . أليس كذٰلكِ ، أيتها النملة الصغيرةُ ؟ »

* * *

فلم تستطعْ « أمُّ مازن » أن تُجيبَها بكلمةٍ واحدة .

فانبرت « أمُّ راشد » قائلةً :

« إنها تُدْعَى « أمَّ مازنٍ » ، وقد دَهمَتْها العاصفةُ ، فيما تقولُ . »

فقالتْ « أمُّ أدْراصٍ » : « خبِّريني ، يا صَغيرتي العزيزةَ : أَلَسْتِ تَقْطُنينَ تلك القرْيةَ العامرةَ ، الّتي في أسْفَلِ شجرة البُرْقوقِ الكبيرةِ ؟ »

فأجابتْها « أمُّ مازنٍ » : « صَدقتِ — يا سَيّدتي — فإنَّ بيْتَنا هُناكَ ، بالْقرب مِنْ جِذعِ تلكِ الشجرةِ . »

فقالتْ « أمُّ راشدٍ » : « لَعَلَّ أمّكِ شديدَةُ القَلَقِ عليْكِ ، بَعْدَ أنْ طالتْ غَيْبَتُكِ ! »

فقالتْ « أمُّ مازنٍ » : « تقولينَ : أمِّى ، ولست أعْرفُ أنَّ لِى أمًّا ولَدَتْنى ؟! »

فسأَلتْها « أمُّ راشد » : « أَتَعْنينَ أَنَّها قد ماتَتْ ؟ »

فأَجابتْها « أمّ مازنٍ » : « ذٰلك ما أَجْهَلُهُ الْجَهْلَ كُلَّهُ. فإنَّنى لَمْ أرَها قطُّ ! »

فسألَتْها « أمّ راشدٍ » : « إذًا فمَنْ كان يتَعَهَّدُكِ بالْغذاء ، فى أثْناء طُفولتكِ ؟ »

فقالتْ « أمّ مازن » :

« كانتْ مُرْضِعاتُنا العاملاتُ يَتَعَهَّدْنَنا ، ويَسْهَرْنَ على راحتنا .

وإنِّى أؤَكِّدُ لكِ أنَّهُنَّ لَمْ يُقصِّرْنَ فى تَلْبيَةِ رَغَباتنا ، والعِناية بأمْرنا . »

فقالتْ « أمّ راشد » : « أليْسَ لكِ مثلُ ما لَنا — مَعْشَرَ الفأْرِ — أمًّا حَنُونًا ، تَتَعَهَّدُكِ ببِرِّها وعَطفها ؟ يا لَكِ منْ شَقيَّةٍ تاعِسَةٍ ! »

فقالتْ « أمّ مازن » : « إنَّ لنا — مَعْشرَ النَّمل — أمَّاتٍ . ولٰكنَّهُنَّ يُحْبَسْنَ فى غُرْفةٍ بعيْنِها — منْ غُرَفِ القَرْيةِ — ويَقْضِينَ فيها أعمارَهُنَّ ، كلَّها ، ليَبِضْنَ .

وقدْ حدَّثونى أنّى حينَ كُنْتُ إحْدَى ذٰلك الْبَيْضِ الصَّغير . . . »

فقاطَعَتْها « أمّ راشدٍ » قائلةً :

« لقد كنتُ أحسَبُ أن الطيورَ هي — وحدَها — التي تبيضُ ! »

فقالتْ « أمّ مازن » : « نعم ، وكنتُ — مُنذُ زمَنٍ يسيرٍ — شيْئًا مستديرًا ، غايةً في الصِّغَرِ ، ولم يَكنْ لي رأسٌ ، ولا أرْجُلٌ ، ولا أعيُنٌ ... ولست أذكرُ ذلك الزمنَ جيِّدًا . »

فقالتْ « أمُّ راشد » ، ضاحكَةً : « لقدْ فهمتُ ما تعنينَ ، فقد كنْتِ في ذلكِ الوقتِ جَنينًا ؛ لَم تَتِمَّ خِلْقَتُه ، ولم يتكوَّنْ رأسُه بعْدُ . »

واستأنفتْ « أمُّ مازن » قائلةً : « وفي ذاتِ يومٍ انشَقَّ ذلك البَيْظُ — فيما حدَّثتْني مُرْضِعَتي « أمُّ مشغُول » — وخرَجَتْ منْ واحِدةٍ منْهُ : دودةٌ بيضاءُ . وكانت هٰذهِ الدودةُ هي أنا !

وقد كنتُ — حينئذٍ — جِدَّ سعيدةٍ . وكانتِ المرْضعاتُ يُغَذِّينَني — في ذلك العهْدِ — كلَّ صَباحٍ ، ثم يَحْمِلْنَني إلى ضَوْءِ الشمسِ ، ويدْلُكْنَ جسمي ، ويَلْعَقْنَهُ ، حتى إذا أمْسَتْ حَمَلْنَني إلى البيت ... وقدِ انقضى هذا الزمنُ السعيدُ إلى غَيْرِ عَوْدَةٍ ؛ فما كانَ أطيبَهُ ، وأرْوَحَ ذِكْراهُ !

ثم أُصِبْت بمرَضٍ ، خُيِّلَ إِلَيَّ أن آخرَتي قد قَرُبتْ ، وأصبحتُ لا أستسيغُ الطعامَ ، ولا أستمرئُ الغذاء ؛ ويئسْتُ من البَقاء في هذه الدنيا ، ووطَّنْتُ نفسي عَلى لقاء الموْتِ .

• • •

وثمّة سمعتُ صَوْتاً يَصيح : « تَغطَّىْ أيتها الدودةُ الصغيرةُ ، والتفِّى بهذا الْخَيطِ الدقيقِ ، الذى تُخْرِجينَهُ من فَمِك . »

فلبَّيْتُ ذلك الدُّعاء من فوْرى ... ولم أكدْ أفعلُ ، حتى وَجَدْتُنى مَحْبوسَة فى كِيسٍ ! »

فقالتْ « أمُّ راشد » مُتَبرِّمَة : « مَحْبوسةً داخلَ كيسٍ؟ لو صحَّ ذلك لاختنقتِ ، أيتها الْمِسْكينةُ التاعِسَةُ ! »

فقالتْ « أمُّ مازن » : « كلَّا ، لم أختنقْ ، بل نِمتُ نوماً عميقاً وانتقلتُ — منذُ ذلكِ الْحِينِ — من طَوْرِ الدُّودِيَّةِ إلى طَوْرِ النَّمليَّةِ . فأصبحتُ — حينئذٍ — عروساً من عرائسِ النَّملِ ، ملفوفةً فى أفوافِ الحَرِيرِ .

ولما استيقظتُ من سُباتى (نوْمى العميقِ) ألْفيتُنى قد انتقلْتُ إلى حالٍ مُغايِرَةٍ لِحالى الأولى كلَّ الْمُغايرَة . فأصبحتُ مَخْلوقةً أخرى وصار لى ستُّ أرجُلٍ ، وانقَسَمَ جسمى أقساماً ثلاثةً؛ فاستوْلَى عَلَيَّ الفرَحُ ، وصِحْتُ مبتهجَةً : « مَرْحَى ! مَرْحى ! لقد أصبحتُ الآن فى عِدادِ الْحَشرات ! »

عَلَى أن فرحى لم يَدُمْ طويلاً ، فقد كان قصير المدَى . وقد علمتُ أنى كنت — إلى ذلكِ الْحِينِ — سجينةً فى الكيس الذى حدَّثْتُكِ عنهُ .

ولم أكن — حينئذٍ — أستطيع حَراكًا . وثَمَّةَ أيقنتُ بالهلاكِ مَرَّةً أخرى ، وحزنتُ لذلكِ ، فاستسلمتُ للبكاء . »

فصاحتِ الفأرتان : « لكِ اللهُ ، أيتها الصديقة التاعسَة ! »

واستأنفت « أمُّ مازن » قائلةً :

« ثم لبثتُ أبكى وقتًا طويلاً . وإنِّى لَغارِقَةٌ فى أحزانى ، مستسلمةٌ لآلامى ، إذْ طَرَق سمعى دبيبُ خُطُواتٍ . فصحتُ مُنَوِّنةً أطلب النَّجْدةَ . ثم شعَرْتُ بأن رفيقاتى الكبيراتِ يَثْقُبْنَ تلكِ القِشرةَ التى تُحيطُ بجسمى . وما كِدْنَ ينتهين من ذلك، حتى اقتربتْ منى إحدى العاملاتِ ، فأمسكتْ برقبتى ، وجرَّتنى إليها ، بكل ما أُوتيَتْ من قوَّة . فَصرَخْتُ متألِّمةً :

« آه ! ترَفَّقى بى — يا سيدتى — فقد آلمْتِنى أشدَّ الألمِ ! »

وكانت تلكِ المُرضِعةُ — فيما يُخيَّلُ إلىَّ — صمَّاء، لا تسمعُ . فقد ظلَّتْ تجرُّنى، ولم تأبَهْ لصيحاتى، ولم تُصْغِ لتأوُّهاتى، واقترَبَتْ جَمْهَرَةٌ منَ العاملاتِ ليساعِدْنَها فى ذلكِ . وما كِدْن يفعلن، حتى سمعتُ صَوتَ القِشرةِ التى تكتنِفُ جسمى ، وهى تتكَسَّرُ .

وهكذا خرجْتُ من سجْنِى الضيِّقِ ، وأنا أضعفُ ما أكون . وقد أُغْمِىَ عَلَىَّ من فرطِ الألمِ والضَّنَى .

ثم أحاطتْ بِىَ المُرْضِعاتُ الحانياتُ ، والعاملاتُ الرَّفيقاتُ ، وظَلِلْنِ يَدْلُكْنَ جسمى ، حتى أيقظْنَنى من غَشْيَتِى ، وأَعَدْنَ إلىَّ رُشْدِى بعد زمنٍ قليل . . ثم مَرَّتْ بى أيامٌ قليلةٌ ، فشعَرْتُ بالقُوَّةِ تَسْرِى فى جسدى شيئًا فشيئًا ، حتى أصبحتُ كما تَرَيانِ ، أيتها الصَّديقتان ! »

٨ — فى طريقِ النمل

فقالت « أمُّ أدراصٍ » :

« ما أجملَ قِصَّتَكِ ، يا «أمَّ مازن » . فوداعًا أيتها الصديقةُ الصغيرةُ ، فإن زوجى « أبا أدراص » لا يزال — كما تركتُه — وحيدًا فى عُشِّه . فلأذهبْ إليه مع ابنتى «أمِّ راشدٍ » . »

فودَّعَتْهما « أمُّ مازن » ، وأسرعتِ الفأرتان إلى عُشِّهما ، وحيَّتا صديقَتَهما ، وهما تتسلقان سنابلَ القمْحِ ، فى خِفَّةٍ ورشاقَةٍ .

واستَخْفَتْ « أمُّ مازن » بين سنابلِ القمحِ . وظلتْ تواصِلُ سيرَها ، حتَّى وصلتْ إلى سهلٍ فسيحٍ . فلم تهتَدِ إلى سبيلها التى تسلُكُها إلى بيتها ، وأيقَنَتْ أنها قد ضَلَّتِ الطريقَ . وحارتْ فى أمرِها ، فلم تَدْرِ : كيف تصنَعُ ؟



وإنها لتسيرُ مُعْتَسِفَةً (على غير هُدًى)، إذْ أبصرتْ لِحُسْنِ حظِّها طريقَ النملِ. ولاحَ لها سَطْحُ بيتها العالى، فصاحت مبتهجةً مسرورةً:

« يا لَها من سعادةٍ! لقدِ اهْتَديتُ إلى وادِينا العامرِ. »

ولكنها شعَرَتْ بألمِ الجوعِ، فآثرتْ أن تذهبَ إلى بقراتها لتحلُبَها. وثَمَّةَ أَسرعتْ إلى شجرةِ البُرْقُوقِ، حيث رأت جمهرةً من رفيقاتها: دائبةَ الحركةِ، موفورةَ النَّشاطِ، بين رائحةٍ وغاديةٍ.

وما إنْ أَبْصرَتْ إحدَى شقيقاتها وهى تُدانيها، حتى ضربَتْ رأسَها بقَرْنَيْها — وهذه لغةُ الكلام عند النمل — ثم تبادلتا تحيَّةً مقتضَبةً، لأن النملَ دائبُ العمَلِ، وهو مشغولٌ أبدًا، لا يَرضَى أن يُضيعَ وقتًا فى ثرْثرةٍ لا طائلَ تحْتَها.

فقالت لها أختُها :

« ها أنتِ ذي قادِمةٌ ، يا « أمَّ مازن » . فمن أين أتيتِ ؟ »

فقالت لها « أمُّ مازن » ، وهى مُستأنِفةٌ سيرَها :

« لقد جُلْت جَوْلةً قصيرةً ، فدهمَتْنى العاصفةُ . »

ثم قابلتْها نملةٌ أخرى ؛ فقالت لها : « سُعِدَ يَوْمُك ، يا « أمَّ مازن » . أذاهبةٌ أنت لتِحْلبى بقراتِنا ؟ سيرى متيقِّظَةً حذرةً ، فإن عصفوراً يرقُبُكِ من أعْلَى شجرةِ البُرْقوقِ . فحذارِ أن تذهبى فريسةً له ! »

فقالت « أمُّ مازن »: « شكرًا لكِ — يا « أمَّ نَوْبَةَ » — على نصيحتِك . وَداعاً يا عزيزتى ! »

ثم أبصرتْ مرْضِعَتَها « بنتَ الشَّيْصَبان »، فقالت لها ، مبتهجةً بلُقياها :

« حُيِّيتِ يا« بنتَ الشيصبان» ،وسعِد يومُك ! أقادمةٌ أنتِ من هذا الثَّقْبِ ؟ »

فأجابتْها بنتُ الشيصبان:«صدقتِ ،يا«أمَّ مازن»! آه،لوعلمتِ — يا بُنَيَّتى — ما أصابنى اليومَ من ألمٍ وشقاءٍ ؟ لقد فُقِئَت إحدى عُيونِى ، منذ لحظةٍ ، وقد أصبحتُ — لتعاستى — لا أكاد أُبْصر شيئاً . »

فقالت « أمُّ مازن » : « مسكينةٌ أنت ، يا « بنتَ الشَّيْصبان » ، فالْبَثى قليلًا ، فإنى سأَصْحَبُك فى عودتِك إلى القرْيةِ . »

٩ — فى برقوقة

ثم أسرعت « أمُّ مازن » إلى غصنِ الشجرةِ ، وزجَّتْ نفسَها بين أوراقها، باحثةً عن بقراتِها ، فلم تَجِدْ — فى هذه المرَّة — بُرغوثًا تحتلبُه . ولـكنَّها عثرت على بُرقوقةٍ كبيرة ، ذهبيَّةِ اللون ، وكان بعضُ العصافير قد شقَّها . فقالت « أمُّ مازن » تحدِّث نفسَها :

« ما أَحْوجَنى إلى هذا الطعامِ . فَلْأَتذوَّقْه لأَسُدَّ جوعى ! »

ولم تكد تَلْعَقُ عُصيرها ، حتى قالت ، مبتهجةً بهذا الغِذاء الفاخر الشهىِّ : « ماألذَّه طعامًا ، وأشهاه غِذاءً ! لقد اهتديت إلى طعامٍ آخرَ ، غيرِ لَبَنِ البَراغيثِ الصغيرة . » ثم لبثَتْ « أمُّ مازن » على البرُقوقَة الشهيّةِ زمنًا طويلاً ، وأَنْسَتْها حلاوَتُها كلَّ شىءٍ ، وظلَّتْ تأكُل منها فى شَرهٍ عجيبٍ . وإنها المُقْبلة على امتصاصِها ، إذْ بالبُرقوقَة ترقصُ فى الفضاء ، ثم تترجَّح يُمْنَةً ويسرة !

وأحَسَّت « أمُّ مازن » ذلك الخطَرَ الداهمَ ، فَتَشبَّثَتْ بها مستميتَةً ، وأمسكتها بكلِّ ما أُوتيَتْ من قُوَّةٍ ، وهى لا تدرى : ماذا حدثَ ؟

ثم اهتزَّتِ البُرقوقةُ هزَّةً أخرى ، فهوَتْ إلى الأرضِ ، وأُغْمِىَ على « أمِّ مازن » وهىَ جاثِمَةٌ فى وَسَطِ الثَّمرَةِ .

١٠ — فى بيتِ « فاضلٍ »

ولعلَّكم تُحِبُّون أن تعرفوا - أيها الأطفالُ الأعزاء — السِّرَّ فيما حدَث. وإنى قاصٌّ عليكم حقيقةَ الأمْر :

لقد جاء « فاضلٌ » الصغيرُ — وهو غلامٌ فى العاشرةِ من عمرهِ تقريباً — وظلّ يهزُّ شجرةَ البرْقوق ، ليملأ سَلَّتَه بذلك الثمرِ الشهيِّ، ليُعِدَّ منها فطائرَ لذيذةً . وكانت بُرقوقةُ « أمِّ مازن » أولَ ما سَقَط منَ الشجرةِ .

وما زال « فاضلٌ » يهزُّ شجرةَ البُرقوقِ ، ويضَعُ فى سَلَّتِه ما يسقُطُ منها ، حتى امْتلأَتْ ، فعاد بها إلى بيتِه.

أَراكم تتساءلون عن مصيرِ « أمِّ مازن » ، لتتعرَّفوا : ماذا أصابَها ؟ أَكان نصيبَها الهلاكُ أم النَّجاةُ ؟

فاعلموا — أيها الأصدقاء الأعِزَّاء — علمتمُ الْخيرَ ، وأُلْهِمْتُمُ الرُّشْدَ وَالسَّدادَ — أنَّ « أمَّ مازن » لم تَمُتْ ، وإنَّما أُغْمِيَ عليها ، من فرطِ الألمِ ، ولبثَتْ وَقتاً طويلًا ، لا تُبدى حَراكاً . ولمَّا استيقظتْ وجدت نفسَها . . . يا لَلعجب ! أَتعرفون : أين وجدت نفسها ؟

لقد دَهشَت « أمُّ مازن » — كما تَدْهَشون — حين رأَتْ أنَّها فى وسَطِ فَطيرةٍ ، كبيرة ، مصنوعةٍ من البُرقوقِ .

وقفزَ « فاضلٌ » الصغيرُ فَرِحاً مسروراً بتلك الفَطيرةِ البُرقوقيَّة الجَميلَةِ .

وقال لأُمِّه : « ما أجملَ فطيرَتَكِ، يا أُمِّي العزيزةَ !

سأعطِي « لَيْلَى » الصغيرةَ نِصْفَ نصيبي منها ، لأنها مريضةٌ ، وأَنا أُحِبُّ أَن أُدخِلَ السُّرورَ على قلبها . فهل تُقِرِّينَني على ذٰلك ؟

إن الفُرْنَ مُوقَدَةٌ ، فلْنَضَعْ فيها الفطيرةَ ، لِتُنْضِجَها النارُ الحاميةُ بعدقليل . »

فارتجفتْ « أمُّ مازن » ، وقالت تُحَدِّثُ نفسَها : « آه ! لقد حان حَيْني ، بلا رَيْبٍ . ولو تَهاوَنْتُ قليلًا لقتَلَتْني نارُ الفُرْنِ الحاميةُ . فلأُنْجُوَنَّ بنفسي، قبل أن أَستهدِفَ لهٰذا الْخطر الداهِمِ المُميتِ ! »

والْتَفَتَ « فاضلٌ » إلى أُمِّه بَغْتَةً ، وقال لها :

« يا للعجَبِ ! أَلا تُبْصرين هٰذه النملةَ، يا أمَّاه ؟ إنها تتنزَّه على فَطيرَتِنا . فيالها من نملةٍ جميلةِ الشكلِ ، ظريفةِ الْمَنْظَرِ . . . لابُدَّ من إخراجها ! »

فصاحت به « أمُّ مازن » ، وقد خَشِيتْ عاقبةَ هٰذا الْعمل :

« حَذارِ أن تفعلَ ذٰلك ، يا « فاضلُ » . اترُكْني — بربِّك — أَذْهبْ إلى حيثُ أَشاء . »

ولكنَّ « فاضلًا » لم يفهَمْ شيئاً مما تقولُ ، لأَنَّهُ لايعرفُ لغةَ النملِ .

وثَمَّةَ أَمسك « أمَّ مازن » ، وقَبَض عليها بإصْبَعَيْه فتوجَّعَتْ ، وأَنَّتْ من فَرْطِ الألمِ ، وقالت له ضارعَةً متوسِّلةً : « شدَّ ما آلمَتْنى قبضةُ أصابعِك ، أيُّها القاسى ! فدَعْنى ، وإلَّا اضْطُرِرْتُ إلى قَرْصِكَ . »

ولم يفهمْ « فاضلٌ » شيئاً من وَعيدها ، ولٰكنَّه وَضَعَها فى راحةِ يدِه مترَفِّقاً . ثم نادَتْه أُمُّه ، فوضَعَ « أمَّ مازن » على المائدةِ ، وَخَفَّ إلى أمِّه مسرعاً.

١١ — فصلٌ من كتابٍ

ورأت « أمُّ مازن » أَمامها فرصةً سانحةً للهَرَبِ ، فنزلتْ مُسرعَةً من المائدةِ ، واختبأَتْ فى صُندوق القُمامَةِ (الكُناسَةِ) ، بين فُتاتِ الْخُبز ، وأخلاطِ الطعامِ . وأصبحتْ — حينئذ — آمِنَةً منَ الأخطارِ . وامتلأَتْ نفْسُها غِبطَةً وسرورًا ، حين رأتْ « فاضلا » يعودُ للبحث عنها ، وفى يدِه مصباحٌ . وأَبصرتْه وهو يُفَتِّشُ عنها فى أَرجاء المَطبخِ كلِّه ، على غير طائلٍ . »

وجاء « أبو فاضلٍ » فسأَل ولدَه : « ماذا تصنعُ ؟ »

فحدَّثَه بقصةِ النَّملةِ والبُرقوقَةِ . فانتهز « أبوفاضل » تلكَ الفرصَةَ السانحةَ ، وظلَّ يحدِّثُ ولدَه عن خصائصِ النمل ، ومزاياه ، ونشاطِه النادرِ ، وَحِيَلِهِ العجيبة . فدَهِش « فاضلٌ » ، وأُعْجِبَ بِما سمع ، وقال لأبيه :

« لعلَّ هٰذا أعجبُ درسٍ سمِعْتُه فى حياتى ! »

ورأى الوالدُ أن ابْنَهُ لا يزال فى حاجةٍ إلى سماعِ الْمَزِيد ، فقال له :

« ما دُمتَ تطلبُ الْمَزِيدَ ، فاذهبْ إلى هٰذا القِمَطْرِ ، وأَحْضِرِ السِّفْرَ العاشرَ من كتابِ « نِهايَةِ الأرَبِ » ، لِأَقرأَ عَلَيْكَ نُبْذَةً شائقةً مِمَّا كَتَبَهُ مُؤَلِّفُه عن النملِ . »

فأسرع « فاضلٌ » إلى القِمَطْرِ ، وأَحضرَ السِّفْرَ العاشرَ من « نِهايةِ الأربِ » . فقرأ عليه أَبوهُ القطعةَ التى اختارها له ، من ذٰلك السِّفْرِ النفيسِ . وإِلَيْكَ ما اختاره :

« . . . والنَّملُ من الْحَيَوانِ الْمُحْتالِ فى طلب المعاش . يتفرّقُ لذٰلك ، فإذا وَجَدَ شيئاً أَنْذَرَ الْباقينَ ، فيأتينَ إلَيْهِ ، ويأخُذْنَ مِنْه . وكُلُّ واحِدٍ مُجْتَهِدٌ فى إِصْلاحِ شأْنِ العامَّةِ ، غيرُ مُخْتَلسٍ لشىء من الرِّزْقِ دُونَ صَحْبِهِ .

وَمن تَحَيُّلِه فى طَلَبِ الرِّزْقِ : أَنَّهُ رُبَّما وُضِعَ بَيْنَهُ وبينَ ما يُخافُ عليه مِنْهُ ما يَمْنَعُه من الوُصولِ إليه من ماءٍ أو شَعَرٍ ، فيتسلق فى الحائط ، ويَمْشى على جِذْعٍ من السقف ، حتى يُسامِتَ (يُقابِلَ ويُوازِىَ) ما حُفِظَ منه ، ثم يُلْقِى نفسه عليه . وفى طَبْعِه وعادَتِه أن يَحْتَكِرَ (يَجْمعَ ويَحْتَبِسَ) — فى زمن الصيف — لزمن الشتاء . وهو إذا خاف — على ما يَدَّخِرُهُ من الْحُبوبِ — العَفَنَ ، والسُّوسَ ، أوالتَّنَدِّىَ من مُجاوَرةِ بَطْنِ الأرْضِ : أخرجها إلى ظاهر

الأرض ، حتَّى تَيْبَسَ ، ثمَّ يُعيدَها . وإنْ خاف على الحَبِّ أن يَنْبُتَ من نَداوَةِ الأرض، نَقَر فى موضع القِطْمِيرِ من وَسَطِ الْحَبَّةِ (وهو الْموضع الذى يبتدئ منه النبات) ، ويَفْلُقُ جميعَ الحَبِّ أنْصافاً . فإن كان من حَبِّ الكُزْبَرَةِ فلَقَه أرْباعاً ، لِأنَّ أنْصاف حَبِّ الكُزْبَرَةِ تنْبتُ .

فالنَّمْلُ — من هذا الوَجْهِ — فى غاية الْحَزْمِ ، فَسُبْحانَ الْمُلْهِمِ ، لا إله غيْرُهُ .

وليس شَيْءٌ — من الحيوان — يَقْوَى عَلَى حَمْلِ ما يكونُ ضِعْفَ وَزْنِه مِرارًا : غير النَّملةِ . والنَّمْلُ يَشَمُّ ما ليْسَ له ريحٌ ، مِمَّا لو وَضعهُ الإنسانُ عِنْدَ أنْفِه ، لما وَجد له ريحاً .

ومن أسباب هلاك النَّملة ، نباتُ الأجنحة لها . فإذا صار النَّمل كذلك ، صادته العصافير ، وأكلته .

وفى ذلك يقول أبو العتاهية :

« وإذا استوَتْ للنَّمل أجنحةٌ حتى يَطيرَ ، فقد دنا عطَبُهُ »

• • •

ولمَّا انتهى « أبو فاضلٍ » من قراءة هذا الفصلِ الْمُعْجِبِ النَّفيس ، امتلأتْ نفسُ « فاضلٍ » فَرَحاً بِما أدرك من حقائقَ . وكان لهذا الدرس أبلغُ الأثرِ فى نفسه .

١٢ — فى غُرفةِ الْمائدةِ

ونعودُ إلى صاحبتنا «أمِّ مازن» التى لَبِثَتْ فى مكانها مُخْتَبئةً ، لا تُبْدِى أقل حَرَاكٍ ، لِنَرَى : ماذا فعلَتْ ؟

لقد جَهَدها ما لقِيَتْ من إرْهاقٍ وإعناتٍ ، فاستسلمتْ للنوم العميق ، وظلَّتْ تَحْلُمُ بالبراغيث الشَّهِيَّةِ مرَّةً ، وبفَطيرةِ البُرقوقِ مرَّةً أخرى .

ولَمَّا استيقظتْ من سُباتها ، رأتْ أهلَ البيتِ قَدْ ناموا جميعاً ، وساد الصمتُ والسُّكونُ ، وانطفأتِ الأضواء ، فلم يبق منها إلّا بَصيصٌ ضئيلٌ ، كان يرسِلُهُ القمرُ فى زاوية من زوايا المَطْبَخِ .

فتشجَّعَتْ « أُمُّ مازن » وخرجت من مَخْبَئِها ، باحثةً — فى جميع الأرجاء – عن ثَقْبٍ تَنْفُذُ منه إلى خارج البيتِ . وما زالت تسيرُ ، حتَّى وصلتْ إلى حجْرَة الْمائدةِ ، وهى حجْرَةٌ فسيحةٌ مُنَسَّقةٌ أجملَ تنسيق . ثم وقفت واجمةً قَلِقَة ، لأنها سَمِعَتْ جَمْجَمَةً بالقُرْبِ منها .

وظلت تُنْصِتُ ، لتتثبَّتَ مِمَّا سَمِعَتْه ، فطَرَقَ سمعَها صوتٌ ضئيل .

فهمَسَتْ « أُمُّ مازنٍ » قائلةً : « ترُى : من الطارقُ ؟ »

فسمِعَتِ الصوْتَ واضحاً : تِكْ ، تِكْ ؛ ثم ارتفع الصوْتُ صائحاً فى هذه المَرة : رن ... رن ... رن ... ! إيذاناً بأن الساعة الثالثةَ الآن .

فاشتدَّ رُعْبُ « أُمِّ مازن » ، وهرَبتْ مسرعةً ، وهى لا تعرفُ : إلى أين تقصِدُ؟ ولا تهتدى إلى مَخْرَجٍ لها من ذلك المَكانِ المُوحِشِ المُخيفِ: وكان الظلامُ حالِكًا ، والسكونُ يسودُ أهلَ البيتِ .

وانْسَلَّتْ « أمُّ مازن » الصغيرةُ من تَحْت الباب ، باحثةً عن مَنْفَذٍ تَخْرُجُ منه ، فإذا بها قد عادتْ من حيث أتتْ . ورجَعَتْ إلى المَطْبخِ الذى كانت فيه .

١٣ — فى المَطبخِ

ولم يَكد يَقِرُّ قَرارُها فى المَطبخ ، حتى أبصرتْ دابَّةً تقرضُ تحت خِوانٍ ، وهى جادَّةٌ فى عملها ، فقالتْ « أمُّ مازن » :

«ما أَشْبَهَ هذه الدابةَ بأمِّ راشد وأمِّ أدْرَاصٍ! وإن كانت أضخمَ منهما. عَلَى أَنّ أَنفها المُحدَّدَ يُماثلُ أَنفَيْهما، ولا يفترقُ عنهما فى شىءٍ . ولستُ أشُكُّ فى أن هذه الدابَّةَ ليستْ إلَّا فأرةً ، فلا أُضيِّعَنَّ الفُرْصةَ . ولا بُدَّ من سؤالها، لعلها ترشِدُنى إلى وسيلةٍ للخروجِ من هذه الدارِ .

ثم أسرعتْ « أمُّ مازن » إلى الدابَّةِ السمراءِ . ولكنها رأتْ عينين كبيرتين خضراوين تقدَحانِ نارًا ، فلم تدرِ : أىُّ عينين هاتان ؟

وأرهفتْ سَمْعَها ، فلم تسمع إلَّا صوتَ الفأرة الصغيرةِ ، وهى تقرضُ بأسنانها . فاستأنفتْ « أمُّ مازن » سيرَها ، وهى تقول فى نفسها :

« لقد كنتُ واهمةً — بلا ريب — فيما حسبْتُه . فقد خُيِّلَ إِلَيَّ أنني أرى عينين كبيرتين تقدحان نارًا ، فلما أَنعمتُ النظرَ ، لم أَعْثُرْ لهما عَلَى أثرٍ. ولعل سببَ هذا الوهمِ عائدٌ إلى ضعف أعصابى ، التى أَضْناها ما بذلتُه من الجهدِ ، وكابَدْتُه من العَناء ، فى اليومِ السابق . »

ثم تقدَّمَتْ إلى الفأرةِ ، قائلةً : « سُعِدَ لَيْلُكِ ، يا سيِّدتى الفأرةَ ! »

فقالتْ لها الفأرةُ مُسْتغْجِبَةً : « سُعِدْتِ وسَلِمْتِ ، يا عَزيزَتى ... آه ... إنكِ نمْلةٌ صغيرةٌ .. فأَىُّ حادث أتى بك إلى هذا البيتِ ، الآهلِ بساكنيه ؟ لقد غرَّرْتِ بنفسك (عَرَّضْتِها للهلاك) . فإنكِ مستهدِفَةٌ للأخطارِ ، إذا أَصررتِ على البقاء فى هذه الدارِ وما أيسرَ عَلَى أىّ كان أن يسحَقَكِ بقَدَمِهِ ، عن قصْدٍ ، أو عن غير قَصْدٍ . فارْجعى إلى واديكِ ، إن أردتِ السلامةَ . فما أظُنُّكِ قَدِمْتِ إلى هُنا — أَيَتها الشَّرِهَةُ الصغيرةُ — إِلَّا رَغْبَةً فى أن تأكُلى من السُّكَّرِ ، وأَلْوانِ الْحَلوَى ، والفطائرِ اللذيذةِ ... إِنى جِدُّ عارفةٍ بما تُؤْثِرينه من لذائذِ الأطعمةِ ! »

فقالتْ « أمُّ مازن » : « كلَّا ، يا سيدتى الفأرةَ ، ما جئتُ هنا مُخْتارةً ، بل ساقتنيَ المَقاديرُ مُرْغَمةً إلى هذا السجنِ . وقد بذلتُ جُهدى ، متلمِّسَةً منفَذًا للخروجِ من هذه الدارِ ، فلم أُوَفَّقْ فى سعيى إلى الآن .

ولكن خبِّريني — متفضِّلةً — بكُنيتِك، لأكرِّمَكِ بها إذا ناديتُك. »

فقالت لها الفأرةُ: « كنيتي — أيتها العزيزةُ — هي أمُّ دِرْص. »

ولم تكد « أمُّ دِرْصٍ » تُتِمُّ هذه الجُملةَ، حتى سَمِعتْ حركةً تنبعثُ من رُكنٍ مظلمٍ. فرفعت « أم دِرْص » أطراف أنفها، وأُذُنَيْها، مُرْتاعَةً؛ ثم سُرِّيَ عنها حين تلفَّتتْ فلم تَجِدْ شيئاً في الحُجرةِ. فقالت ساخرة:

« ما أشدَّ غَبائي وجُبْني! فإني دائمةُ الخَوْف من القطِّ، لأن أُمي طالما حذَّرَتْنا منه، وأوهمَتْنا أن خطرَهُ لا يُدْفَعُ، وأن بأسَه مَرْهوبٌ.

وقد طالما حدَّثَتْنا أحاديثَ مُفَزِّعة عن القِططِ، ومصايدِ الفأر. وقد حظَرَتْ علينا الدخولَ في هذا المَطبخِ الحافلِ بأشهى الأطعمةِ ...

ولكنَّني لن أعبأَ بنصيحتِها — في هذه المرَّةِ — فقد أيقنتُ أنها تُغالي في الخَوفِ والفزعِ، مِمَّا لا يُخيف ولا يُفْزِعُ ...

ألا ترَيْن هذا البابَ أيتها النملةُ الصغيرةُ؟ إن خلفَه من نفائس الأطعمَةِ، ولذائذِ المآكلِ المُرْتَقياتِ، ما يُنْسِي الْجَبانَ جُبْنَهُ، ويجعلُهُ شجاعًا جريئًا يستهينُ بالأخطارِ، ولا يُبالي بالعواقب ...

إن فيه كثيرًا من ألوانِ الخبزِ ، والأرزِ ، والجُبْنِ اللذيذِ ، وما إلى ذلكِ من أَصناف الطعامِ ...

ألا تَشَمِّينَ هذه الرائحةَ الطَّيِّبةَ ؟ لقد طالما نَعِمْتُ باقتحام هذا البابِ ، وأكلتُ ما شئتُ من هذه اللَّذائذِ ... ثم عدتُ إلى أهلي راضيةً مسرورةً ... فإن أسرتي تقطُنُ مستودَعَ القمحِ القريبَ من هذه الحُجْرَةِ حيثُ تُخفِي زادَنا منَ الجوْزِ ، و ... »

وهنا وقفتْ « أمُّ دِرْصٍ » عن الكلام ، فقد سمعتِ الحركةَ تنبعثُ من الركنِ المظلمِ ، مرةً أخرى . والتفتتْ « أمُّ مازن » فرأتِ العينيْنِ البراقتيْنِ الكبيرتين تقدَحان بالشررَ .

وكانتِ القطَّةُ — في هذه المرَّةِ — قريبةً منها ، فارتجفَتْ « أمُّ مازن » . ولم تكنْ قد رأتِ القطَّ قبل هذه المرةِ ، ولم تستَبِنْ — من خلالِ الظلامِ — إلَّا عينيْه . فقالت مذعورةً :

« الزَمى الصمتَ ، يا « أمَّ درصٍ » . فإني أتوجَّسُ شرًّا ، وقد خُيِّلَ إليَّ أنني أرى شيئًا مُخْتَبِئًا في بعض الزوايا . »

١٤ – غُرُور الفأرة

فقالت «أُمُّ درص» هازئة :

«ها ! ها ! ها ! يا لكِ من رِعْديدةٍ خائرةِ العزم ! على أن مَجالَ العذرِ أمامَك فسيحٌ ، لأنك حشرةٌ ضعيفةُ الحَوْلِ والطَّوْلِ . . . أما أنا فلستُ جديرةً أن أخشى كائنًا كان . . . إننى لا أُبالى بالناس، ولا بمصايدِ الفأر ، ولا بالقِطاطِ ، لأنى عاقلةٌ رشيدةٌ ، وإن كانت أُمى تأبَى إلا أن تعاملَنى كما تُعاملُ طفلة صغيرةً . ولها العُذْرُ فإن حبَّ الأمهاتِ كثيرًا ما يدفعُهُنَّ إلى تخويفِ بناتِهِنَّ من كلِّ شىء . . . إننى جريئةُ القلبِ، يا« أُمَّ مازنٍ»،وقد كنت أقرض الأرزَ أمس — فى هذا المكان — فى وَضح النهار ، أمام ربَّةِ الدار ، وعلى مرأًى منها . . . وقد شَعَرتُ — أولَ الأمر — بشىء منَ الخَوْفِ ، ثم عاودَتنِىَ الشجاعَةُ . . . ولعلك لا تعرفين : ماذا فعلتُ ؟ »

فقالت لها «أُمُّ مازن » : « كلا ، لا أعرفُ شيئًا ! »

فقالت «أُمُّ دِرْصٍ » : « إنها لم تَكَد تفتحُ هذه الغرارَةَ (الزَّكيبةَ) التى أمامنا ، حتى قفزتُ فى وجهها . فاشتدَّ خوفُها ولاذتْ بالفِرار ، وصاحتْ تطلُبُ النجدةَ . وسألجأُ إلى هذه الطريقةِ متى رأيتُ قِطًّا ! »

١٥ — نشيد الفأرة

وما زالت «أمُّ دِرْصٍ» سابحةً في أحلامها، متظاهرةً بالجُرْأة، مُستهينةً بالأخطار، غيرَ مقدِّرةٍ للعواقبِ حساباً. ثم ختمتْ غُرورَها، متغنِّيةً بالأُنشودةِ التاليةِ:

حدَّثتْ أُمِّي، وما أعْ　　جَبَ ما قالتْهُ أُمِّي!
«حدَّثتْنـــا بحَديثٍ　　كان وَهْماً: أيَّ وَهْمِ!

• • •

حَدَّثَتْنا أنَّ بأسَ الـ　　قِطِّ: مرهوبٌ، مُخيفُ
وهو — في رأْيِي — جبانٌ　　خائرُ العزمِ، ضَعيفُ

• • •

إنْ رأَى — مِثْلِيَ — سَـ　　بَّاقاً، توانَى عن لَحاقِهْ
أينَ بأسُ القطِّ من بأ　　سِي؟ وسَبْقِي مِنْ سِباقِهْ؟!

• • •

أبلِغوا القِطَّةَ عنِّي:　　«أنني أشجعُ منها
لستُ أخشاها، ولا أفْ　　زَعُ إن حُدِّثتُ عنها!»

• • •

ليتها تَبْدُو أمامى لِترى عَزْمى ، وبأسى
عَلّنى أُلقِى عليهـا — إن أتتْ — أبلغَ درسِ

• • •

علّهـا تُؤمِنُ أن الـ فأر لا تَرضَى الفِرارا
وترى أنى عنيـدٌ — فى صِراعى ـ لا أُبارَى

• • •

وترى منا — إذا ثُرْ نا — أشِـدّاء كِرامًا
لا يُبالون — إذا ما غَضِبوا — المَوتَ الزُّؤاما !»

٦١ — نشيد القِطّ

وما كادتْ « أمُّ دِرْصٍ » تُتِمُّ آخرَ كلمةٍ فى هذا النشيدِ، حتى امتلأَ قلبُها ذُعْرًا . فوقفَتِ المِسْكينَةُ عنِ الكلامِ ، وقفَّ شعرُها من فَرْطِ الرُّعبِ ، وجَحظَتْ عيناها ، وصاحتْ ، وهى ترتَجِفُ :

« رَبّاه ! ماذا أرى ؟

أدركِينى يا أماه ! إنَّه القِطُّ . فما حيلتى فى دفعِه ؟ »

وأقبلَ عَلَيْها القِطُّ يُطاردها ، وَيُنشِدُ تائِهًا مَزْهُوًّا :

« أيُّها المَغرورُ : أهْلًا بِكَ إذْ جِئتَ — وسهْلاَ
قد تَمَنَّيْتَ لِقائِي ضَلَّةً منك ، وجهْلا

• • •

أنتَ لِي أَفْخَرُ زادٍ أنت لى أَشْهَى طَعامْ
فَتأهَّبْ لِلقائى واغْنمِ المَوْتَ الزُّؤَامْ . »

وظلَّتْ « أمُّ درصٍ » تجرى فى أرجاء المَطبخ ، على غير هُدًى ، والقِطُّ يطاردُها ويَسُدُّ عليها منافذَ الهرَبِ ؛ وهى تَغُوِّث ، طالبةً النجدةَ ، فلا يُغيثُها أحدٌ .

وكانت « أمُّ درصٍ » خفيفة الحَركةِ ، سريعةَ القفزِ ، فأسرعت إلى جُحْرِها ، حتى إذا دانَتْه ، ولم يَبْقَ على بلوغِه إلا قفزَتان ، أدرك « أبوخَداشٍ » غَرَضَها ، فوَثَب عليها وثبةً واحدة ، فإذا هيَ بين مخالبه .

وهكذا حالَ دونَ ما تريد ، وبدَّلَ أملَها يأسًا ، وأصبحت بين براثنِ المَوتِ ، بعد أن كانت أقربَ ما تكونُ إلى النجاةِ ؛ فلم تَرَ بدًّا من مُعاودةِ النِّضال .

١٧ ـــ عاقبة الغُرورِ

فانسلَّت من بين أرجلِ عدُوِّها اللَّدودِ ، وأسرعَتْ تجْرى بكلِّ سرعَتِها،



حتى وجدتْ مِكْنَسةً فى زاويةِ المَطبخِ ، فاختبأتْ خلفَها ، وهى تعلِّلُ نفسَها بكاذباتِ الأمانىِّ ، وتظنُّ أن « أبا خَداشٍ » لن يراها . وتقولُ لنفسها نادمةً محزونةً:

« ليتنى أصغيتُ إلى نُصْحِكِ يا أُمَّاه ! إذَنْ لَنجوتُ من الخَطرِ الداهمِ ، ولكنَّ غرورى أوردَنى مواردَ الهلاكِ . . . ولئن نجوتُ فى هذه المَرةِ ، لم أُخالفْ لكِ قولًا بعد اليومِ ! »

ولكنَّ آمالَ « أُمِّ درص » تبددتْ ، وذهبتْ أدراجَ الرِّياحِ ، فقد ربَضَ « أبو خداش » أمام المِكْنَسَةِ ، وظلَّ يترقَّبُ فريسته ، بفارغ الصبرِ ، وهو يتحفَّزُ للفتك بها ، والانقضاضِ عليها ، وقد سال لُعابُه شوقًا إلى ازدرادِها . وظلَّ يُمِرُّ لسانَه على شفتَيْه مرارًا ،

وهو فرحانُ بهذا الفَطُورِ الشَّهِيِّ الوشيكِ !

وما كادت « أمُّ درصٍ » تُطِلُّ برأسها الصغيرِ ، حتى انقضَّ عليها « أبو خداش » ، وأمسكَ بها بين مِخْلَبَيْهِ ، فقالت له ضارعةً :

« اصفح عنى — فى هذه المرة — يا أبا خَداش! وإنِّى مُعاهدتُكَ على تركِ الدار . . . اغفرْ لى — بربِّكَ — هذه الزلَّةَ ؛ فلن أعودَ إلى اقترافِها بعد اليومِ . »

ولكن « أبا خداش » لم يُصْغِ إلى شىءٍ مما تقولُ ، وأمسك بها بين بَراثنِه .

ولم تُطِقْ « أم مازن » أن ترى مصرعَ صديقتها التاعسة المِسْكينة : « أمِّ دِرص » ، التى عوقبتْ على غرورِها وبلاهَتِها أشنعَ عقابٍ ، فاختبأتْ « أم مازنٍ » حتى غابَ « أبو خَداش » ، ومعه فريستُه ، التى خالفتْ نُصحَ أمِّها فلقِيَتْ حَتْفَها جزاءً وفاقاً !

١٨ — بين « فاضل » و« كَوْثَرَ »

ولمَّـا أَصْبحتْ « أمُّ مازن » ، و نَفَذَ — إلى المَطبخِ — أَوَّلُ شُعاعٍ من أَشعَّةِ الشمسِ الوضَّاءةِ ، أقبلتْ « أمُّ مازن » على المَائدةِ ، تلتَهِمُ سُكَّرًا مسحوقًا . وظلَّتْ تأكُلهُ في شَرَهٍ عجيبٍ ، شأنُ بناتِ جنسِها جميعًا .

وإنها لتلتهمُ السكَّرَ التهامًا ، إذ سمعَتْ صوتَ خُطُواتٍ ثقيلةٍ ، تَدِبُّ في المَمْشَى ، ورأت « كَوْثَرَ » قادمةً على المَطبخِ .

فقالت « أمُّ مازنٍ » في نفسِها :

« لقد حان وقتُ الهَربِ ، حتى لا تَرانى هذه الفتاةُ ، فتُهلِكَنى . »

ورأت « أمُّ مازن » أمامها ذُبابةً تطيرُ ، صَوْب نافذةٍ مفتوحةٍ ، ثم تخرجُ منها . فاعتزمت أن تخرُجَ من ذلك المنفَذِ ، وأسرعت تَعْدُو (تَجْرى) إلى النافذَةِ المفتوحةِ ، وهى حريصةٌ على أن تَسْتَخفِىَ عن عينىْ « كَوْثَرَ » التى كانت مشغولةً بإعدادِ الفطورِ ... ومازالت « أمُّ مازن » تَجِدُّ فى سيرها — بعزمِ نَمْلةٍ — حتى وصلتْ إلى النافذة .

ولـكنها لم تَـكَدْ تبلغُ حافتَها ، حتى هالَها ما رأتْ ، فقد أبصرت هاويةً بعيدةَ الغوْرِ (شَديدةَ العُمْقِ) ، بين النافذةِ والأرض .

فحارتْ فى أمرِها ، ولم تَدْرِ : كيف تصنَعُ ؟

وتراجعتْ — من فوْرها — خائفةً مذعورةً ، حتى لا تتردَّى (لا تَسقُطَ) فى تلك الهاويةِ السَّحيقَةِ .

وإنها لتَهُمُّ بالعودَةِ—من حيثُ أتتْ — إذْطرَق سَمْعَها صوتُ «فاضلٍ» وهو يُنادِى أختَه « كوثرَ » :

« هل أعددتِ فَطورى ، أيتها الشقيقةُ العزيزةُ ؟ »

فقالت له « كوثرُ » باسِمَةً : « لقد أوشكتُ أن أنتهىَ منه . »

فصاح « فاضلٌ » مسرورًا : « انظرى إلى هذه النملةِ الصغيرةِ، التى تسيرُ حائرةً على حافَةِ النافذةِ . لقد بحثتُ عنها أَمسِ، فلم أفزْ بطائلٍ من بحثى ، وها ، قد عثَرتُ عليها الآن ! »

فقالت له «كوثرُ» :

« دَعْها — يا عزيزى — آمنةً وادِعَةً ، ولا تُزْعِجْها . »

فقال لها « فاضلٌ » : « كلا ، لن أصيبَها بسوء . ولكنِّى حريصٌ على درْسِ دقائقِ تركيبِها العجيبِ . »

١٩ — فى الهواءِ الطَّلْق

ولكنَّ « أمَّ مازن » كانت تُؤْثِرُ (تُفَضِّل) أن تموتَ على أن يَقبِضَ عليها أحدٌ . فأسرعت إلى حافَةِ النافِذَةِ . واعتزمتْ أن تَهْبطَ إلى الأرض ،

كبّدَها ذلك ما كبّدَها من عناءٍ ومخاطرةٍ ! فتقدّمتْ إلى الحائطِ فى صبرٍ وثباتٍ ، وأنشبَتْ أرجُلَها متشبِّثةً به . ولكنها لم تكدْ تخطُو خطُواتٍ ثلاثاً ، حتى انقلبَ رأسُها إلى أسفلَ ، واختلّ توازُنُها ، فهوَتْ مِنِ ارتفاعِ طابَقٍ كاملٍ . وقد كان هذا الارتفاعُ كافياً لقتلِ مَنْ هُوَ أقوى منَ النملةِ ؛ ولكنها نجَتْ منَ الخطرِ — لِحُسْنِ حظها — فقدِ اعترضَتْها ورقةُ كَرْمٍ ، فحَمَتْها من أن تُصابَ بسوءٍ .

وانطلقت « أمُّ مازن » تجدُّ فى طريقِها ، إلى بيتِها ، وقد أصبحتْ آمنةً فى الهواء الطّلْقِ . . وما زالت جادّةً فى السيرِ حتى اقتربتْ من البيتِ .

٢٠ — فى وادى النملِ

ولم تكدْ تدنُو من وادى النملِ ، حتى رأت ما أدهَشَها وهالَها ، وحزَنها وأقلقَ بالَها .

تُرَى : ماذا حدثَ ؟ وأىُّ خَطْبٍ ألمّ بعشيرَتِها ، وحلَّ بقومِها ؟

لقد أبصرَتْ طوائفَ النملِ خارجَةً أسراباً أسراباً ، ضاربةً فى فِجاجِ الأرضِ (طُرُقِها) ، على غيرِ هدًى .

فقالت « أمُّ مازن » تُحدِّثُ نفسَها مدهوشةً :

« هذا أعجبُ ما رأيتُ فى حياتى ! وما أدرى: لِمَ خرجتْ عشيرتى كلُّها منْ دُورِها ! أتُراهُنَّ قد خرجْنَ ليقابِلْنَنى ؟ ما أظنُّ ذلك ! »

ثم أبْصرتْ « أمُّ مازن » صاحبَتَها « بنت الشيصبان » قادمةً ، وقد بدتْ عليها أماراتُ الارتباكِ والْحيْرَةِ وكأنَّما هى هاربَةٌ ، وقد حمَلتْ طفلاً صغيرًا.

فصاحتْ بها « أم مازن » قائلةً :

« سُعِدَ يومُكِ ، يا « بنتَ الشيصبان» . هأنا ذِى ربيبَتُكِ : «أمُّ مازن» . ألا تعرفيننى ؟ ما بالكِ خائفةً وَجِلَةً ؟ »

فقالت لها « بنتُ الشَّيْصبان » : « آهِ لنا ، ياحبيبتى ! وَواهِ من تلك النكبةِ التى ألَمَّتْ بنا ، أيتها العزيزةُ ! »

فصاحتْ « أمُّ مازنٍ » مُرْتاعَةً : « أىَّ نكبةٍ تعنِينَ ؟ »

فأجابتها « بنتُ الشيصبان» :

« لقد هاجمتْنا جيُوشٌ كثيفَةٌ من النِّمالِ الشُّقْرِ الخَبيثةِ ، وشنَّتْ علينا غارةً شعواءَ . ولعلَّكِ تعرفين أن أولئكِ الشقراواتِ طالما خطفْنَ بناتنا ، وفَجَعْنَنا فى حبيباتِنا .

ولقد كاثَرْنَنا بِعَدَدِهِنَّ ، وملأْنَ السهلَ ، وملَكْنَ علينا فِجاجَ الأرضِ كلَّها . آه ! ألا تسمعينَ ؟ وَداعاً ، يا « أُمَّ مازن » . فإنى هاربَةٌ ، حتى لا أَقَعَ فريسةً لأولئكِ الْخَبيثاتِ . »

٢١ — غَزْوَة النَّمل



ولقد صدقتْ « بنتُ الشيصبان » فيما قالته ، فإن جيوشَ الشقرواتِ — من نِمالِ الأعداء — كانتْ تتقدَّم إلى وادى النَّمل ، زاحِفةً تحاولُ أن تكتسحَ الوادِىَ . وقد رتَّبتْ خُطَّةَ الهجومِ والغزْوِ ، وسارت متقدِّمةً ،

فى صفوف مُتراصَّة . وكان القادةُ فى مقدِّمةِ الجيْش، مُستبسلين فى الحَرْبِ ، وقد رفعوا قرونهم مُهيبين (صائحين) بجنودهم : أن تقدَّموا إلى الأمام ، إلى الأمام دائماً !

وكانت الشقراواتُ الكبيراتُ آيةً من آياتِ القسْوَةِ، فلم ترْحمْ صغيراً، ولم توقِّرْ كبيراً . واضْطربتْ أسرابُ النِّمالِ السُّودِ الصغيرةِ، وتفرَّق حُرَّاسُها أشْتاتاً ، يُغوِّثون ويستنْجدون . وخرجتْ جماهيرُ النملِ الأسوَدِ ، لِصَدِّ غارةِ الأعداء ، وقد آليْنَ على أنفسهن أن يمْنَعنَ واديَهُنَّ ، ويَحْمين وطنَهُنَّ ، ويذُدْنَ عن ذراريهنَّ (نسْلهنَّ) ، باذلاتٍ أرواحَهُنَّ رخيصةً فى سبيلِ حمايةِ الأهلِ والوطَنِ !

واندفَعْن — فى شجاعَةٍ و إقدامٍ لا مَثِيلَ لهما — يحاربْنَ العَدُوَّ، و يُجْلين المُغيراتِ ، وقد بذَلن كلَّ ما وسِعَتْه جهودُهُن ، وأَبْلَيْنَ فى الْحَرْب أحسنَ بلاء .

ولكنَّ الشقراواتِ الكبيراتِ ظَلِلن يتقدَّمْنَ إلى الأمامِ ، مُستهيناتٍ بكلِّ ما يتعرَّضْنَ له من أخطار ، وقد أصْرَرْن على اقْتحامِ صُفوفِ العدوِّ وإذلاله ، كلَّفهُنَّ ذلك ما كلَّفهن ، من جهاد وفِداء .

وصاح صائحُهُنَّ — من القادَة — وهُنَّ يتسلّقْنَ قِمّةَ التلّةِ ، ويعتَلِين ذِرْوَةَ الرَّبْوَةِ :

« نَظِّمْنَ صفوفَكن — ياحَفَدَةَ « الشَّيْصبانِ » — واسْتَلْهِمْنَ مَضاءَ عزمِ أَسلافِكُنَّ . ولا تنسَيْنَ نصيحةَ جَدِّنا الأكبر : « الشيصبانِ » العظيمِ ، فقد أصبح النصرُ منا قريباً ، ولم يَبْقَ عليكن إلّاخُطُواتٌ يَسيرةٌ تَقْهَرْنَ — في إثْرِها — العدوَّ ؛ وتنتصِرْنَ في هذه الْمَعْرَكَةِ الحاسِمَةِ ! »

فسارتِ الشقراواتُ ، زاحفاتٍ على أعدائهن ، مُرَدِّداتٍ نشيدَ الحَرب الذي حفِظْنَه من أَسلافهن ، عن جَدِّهِنَّ الأوّلِ : « الشيصبانِ » الأكبرِ .

٢٢ — نشيدُ الشَّيْصَبان

وكانتْ جماعاتُ النِّمال الشُّقْرِ ، جادَّةً في طريقِها إلى وادِي الأعْداء ، وهُنَّ يُنْشِدْنَ النَّشيدَ التَّاليَ مُتَحمِّساتٍ :

« يا بَنَاتِ الشَّيْصَبان : قَدْ أَتى يَوْمُ الطِّعانِ

فتوافَدْنَ أُلُوفَا وتَجَمَّعْن صُفُوفَا

واعْتَلِينَ الْهَضَباتِ واقْتَحِمْنَ العَقَباتِ

ثم فَرِّقنَ الأعادِي بَدَدًا في كلِّ وادى !

• • •

يابناتِ الشَّيْصَبانِ : قدْ أتى يومُ الطِّعانِ
فليَكُنْ يومَ فخارٍ وابتهاجٍ وانتصارِ
لاتوانَيْنَ ، فإنَّا — إنْ توانيْتُنَّ — ضِعْنا
فلْتُدَكْدِكْنَ الْجبالا ولْتُذَلِّلْنَ المُحالا !

• • •

يا بناتِ الشَّيصبانِ : قد أتى يومُ الطِّعانِ
فَتَسَنَّمْنَ الوِهـادا وتناسَيْن الرُّقـادا
وتَسامَيْنَ لِمَجْـدِ وتـذَرَّعْنَ بجِـدٍّ
وتقَحَّمْنَ السُّهـولا وتدافعْنَ سُيـولا !

• • •

يابناتِ الشـيْصَبانِ قد أتى يومُ الطِّعانِ
جَدُّكُنَّ الشيْصَبانُ مَجْدُهُ ليسَ يُهانُ :
إنَّـا نَحْمِي لِواءهْ فَلْنَمُوتَنَّ فِـداءهْ
ولْنَمُوتَنَّ كراما ذَلَّ مَنْ يَخْشى الْحِماما !»

٢٣ — انتصارُ الشقراواتِ

وسُرعانَ ما اقتحمتِ الشقراواتُ وادىَ الأعداء ، باحثاتٍ عن أطفالهن الصغارِ ، وقد تمَّ لهن الظَّفرُ . وعُدْنَ ، وفى فمِ كلِّ شقراءَ منهن دُودةٌ ، أو طِفلٌ ، من ذَرارىِّ النِّمال السوداء ، وهنَّ أعزُّ ما لديهنَّ فى الحياةِ .

وهٰكذا انتهت تلك الحربُ الطَّاحنَةُ بانْدِحارِ السَّوداواتِ ، وانتصارِ الشقراواتِ ، وامتلأتْ ساحَةُ القِتالِ بالقتلَى والجرْحَى ، منَ السوداواتِ ، وتكدَّستْ أشلاؤهُنَّ أكداساً .

ألا قبُحَت الحرْبُ ! وقبُحَ كُلُّ مَنْ يَعملُ على إثارتِها وإلْهابِ نارِها !...

٢٤ — مجمعُ النملِ الأسْوَدِ

وعادتْ جُيُوشُ الشقراواتِ فَرِحاتٍ بانتصارِهن ، وقد حَمَلْن أسلابَ أعدائِهن ، ورَجَعْن بغنائمِهن الثمينةِ . ولو رأيْتموهُن — أيها الأطفالُ الأعزاء — لرأيتُم آلافاً منَ القشورِ البيضاءِ ، سائرةً خِلالَ الحشائشِ الخضراء .

وما أظُنُّكم تَجْهلون تلك القشورَ البيض ، فهى ذَرارىُّ النِّمالِ السُّودِ التى حمَلَتْها الشقراواتُ إلى واديهِنَّ البعيد .

ونعودُ إلى « أمِّ مازنٍ » لنَرَى ما فعلتْهُ فى أثناء هٰذه المَعركَةِ الطاحنةِ .

والحقَّ أقولُ — أيها القراءُ الأعزّاءُ — إنَّ هٰذه النملةَ الباسلةَ قد استبسلَتْ في الدِّفاعِ ، واستَماتتْ في سبيلِ الذَّوْدِ عنِ الوَطنِ والعَشيرةِ ، وقاتلتْ في الصَّفِّ الأولِ ، حتى خرَّتْ صريعةً في المَيْدانِ ، ورقدَتْ بين الأشْلاءِ ، وهي إلى الموتِ أقربُ منها إلى الحَياةِ .

وبعدَ قليلٍ جاءت السوداواتُ باحثاتٍ عنِ الجرحَى ، واستيقظتْ «أمُّ مازن» من رقدَتِها ، فجَمْجَمتْ تقولُ بصوتٍ ضعيفٍ : « تُرَى : أينَ أنا ؟ »

ورآها صواحبُها ، وهي تُحَرِّكُ إحدى أرجُلِها ، فتقدَّمتْ إحداهُن إليها ، وصاحتْ قائلةً :

« آه ! هاهي « أمُّ مازنٍ » ! يا عزيزاتي ! فهلُمِّي أيتها الرفيقةُ الباسلةُ ! »

فنهضَت « أمُّ مازنٍ » من رقدَتِها . وبذلتْ جُهدًا شديدًا ، حتى استطاعَتْ أن تقفَ على أقدامِها ، وظلَّتْ تُحَرِّكُ أرجُلَها لِتَتَفَقَّدَها . فلمَّا اطمأنتْ بوُجودها ، حَمِدَت اللهَ عَلَى السلامَةِ . وقالتْ : «شكراً لله عَلَى أنني لم أُصَبْ بسوءٍ ، ولم تُكْسَرْ لي قدمٌ واحدةٌ ، في هٰذه الحربِ الطاحنَةِ . »

ثُمَّ سارت مستندةً إلى إحدى رفيقاتِها ، ومازالت تتوكَّأُ عليها حتى وصلتْ إلى قاعَةِ الاجتماعِ ، فرأتْ جمهرةً منَ النِّمالِ تتحدثُ وتُناقشُ مناقشاتٍ حادّةً .

وسَمِعَتْ إحداهُنَّ تقولُ :

« هل وضَعْتُنَّ حارساتٍ عند السِّياجِ ، قبل كلِّ شيء ؟ »

فأجابتها نملةٌ أخرى : « لم يَفُتْنا شيءٌ من ذلك — بلا رَيْبٍ — فقد وَقَفْنا جماعةً مِنَ الحارساتِ في الْجَبْهةِ الأخرى . وإني جِدُّ واثقةٍ مِن أنَّ هذه المَأْساةَ المُفجِعةَ لن تتكرَّرَ بعد اليومِ . »

فقالت نملةٌ ثالثة : « لقد جاءت « بنتُ الشيصبان » . سُعِدَ مساؤكِ ، أيتها الأختُ العزيزةُ . خبِّرينا ماذا تحملين ؟ إني أراكِ تحملين طفلاً !

يالله ! لقد حسبناكِ في عِدادِ الهلكَى ، أيتها الرفيقة الكريمة ! »

فقالت « بنتُ الشيصبان » بعد أن وضعتْ طفلَها أمامَهُنَّ :

« أسعد اللهُ مساءكن يا عزيزاتى ! ألا تريْن أنى لم أُضِعْ وَقْتى عَبَثاً ؟ فقدِ انسللْتُ في أثناء المعركةِ ، وخَبَأْتُهُنَّ في ذلك الثَّقْبِ الأمينِ ، الذى فى جِذْعِ شجرةِ البُرقوقِ . »

فقُلنَ لها : « أيَّ شيءٍ خبأتِ في جذعِ البُرقوقةِ ، يا بنتَ الشيصبانِ ؟ »

فقالت مزهُوَّةً فَخُورَةً : « لقد خبأْتُ الأطفالَ الأعزّاء ! فقدِ انسللتُ إلى وادينا خَمْسَ مرّات ، وحملتُ في كلِّ مرةٍ طفلاً ، وها هو ذا أحد الأطفالِ ! فتعالَيْنَ معى ، لِنُحْضِرَ الباقينَ . »

فارتفعت أصواتُ الثناءِ والإعجابِ بها من كلِّ صَوْبٍ ، وقُلْنَ لها :
« يا لكِ من مُرْضِعٍ نبيلةٍ ، يا بنتَ الشيصبان ! فَلَكِ مِنَّا أطيبُ الشُّكرِ ، وأجلُّ الاحترامِ . »

٢٥ — خُطْبَةُ « أمِّ مشغول »

وَأرادتْ « أمُّ مازنٍ » أن تتعرَّفَ عددَ القتلَى ، فاقترحتْ عَلَى صديقتِها « أمِّ نَوْبَةَ » أن تناديَ الأسماءَ .. ولم تكدْ تفعلُ ، حتى ظهرَ أنَّ عددَ القتلَى قد فاقَ كلَّ حُسبانٍ .

وقالتْ « أمُّ نَوْبَةَ » : « ولقد هَلَكَ — في هٰذه المَوْقِعَةِ الهائلةِ — كثيرٌ منَ القُوَّادِ ، منهم : العُجْرُوفُ ، والدُّعْبُوبُ ، والدِّعامةُ ، والجَحْفَلُ ، والجَثْلُ . وهلكتِ السُّمْسُمَةُ ؛ وهي زَعيمةُ جيشِ الأعداءِ ، وقائدةُ جُموعِهم . وقُتِلَ جُمهورٌ ضخمٌ من الدَّبى : وهي تلك النِّمالُ الصغيراتُ ، العزيزاتُ علينا ، كما هلكتْ جماعَةٌ من السماسمِ ، وهم إخوتُنا منَ النِّمالِ التي تعيشُ في البساتينِ . ولم يكنْ لها يدٌ في هٰذه الحَربِ الطاحنَةِ ، ولٰكنها ذهبتْ فريسةً بلا ثمنٍ . ولقد رأيتُ نَمْلةً مستلقيةً على ظهرِها ، رافعةً قوائمَها إلى السماءِ ، وهي تدعو اللهَ أَن يَثْأرَ لنا من الشَّقْراواتِ الجائراتِ ، اللائي بَغَيْنَ ، واعتَدَيْنَ علينا أشنعَ اعتداءٍ .

فسألْتُ اللهَ أن يُجيبَ دعاءها ، ويَنتقمَ لنا مِنَ القومِ الظّالمين . »

فوَجَمتِ النِّمالُ السوداء ، وحزِنَتْ لِمَصارِعِ أَخَواتِها .

وصاحَتْ « أمُّ مازنٍ » متألِّمةً :

« لقد فَتَك بنا النملُ الأشقرُ فتكاً ذَريعاً ، وفَجَعنا فى أعزِّ صواحِبِنا، وأبرِّ صديقاتِنا، وأكْرَمِ أهلِينا علينا . ولقد أثارَها علينا غارةً شعواء، وذَبحَ من السوداواتِ عدداً لا يُحْصَى، ولم يَبْقَ فى غُرَفِ المُرَبِّياتِ أحدٌ . فَلْنُشَيِّعْ قتلانا غداً — فى احتفالٍ مَهيبٍ — إلى مقبَرتنا التى خَلْفَ السِّياجِ . »

ولمَّا أتمَّت « أمُّ مازنٍ » كلامَها ، ساد الصمتُ والحزْنُ ، ساعةً منَ الزمانِ ، ثم انبعثتْ أصواتٌ — من أرجاء القاعَةِ — تقولُ :

« اِصْغَيْنَ إلى خطابِ أمِّ مشغولٍ ! »

فتلفَّتَتِ النِّمالُ إلى « أمِّ مشغول » ، وهى نَمْلةٌ عامِلةٌ محتَرمَةٌ ، وقد صَعِدَتْ عَلَى ظَهرِ نملةٍ أخرى لتُسْمِعَ رفيقاتِها صوتَها ، فى وضُوحٍ وجلاءٍ .

وأرْهَفَتِ النِّمالُ آذانَهُنَّ لسماعِ ما تقولُه « أمُّ مشغول » .

وقد أنشأَت تقول : « أبنائى ، وبناتِ أخَواتى ، وحَفَدَتِىَ الأعزاء :

إن هٰذا اليومَ لن يُمْحَى من ذاكرتنا ، ما حَيِينا ؛ فهو يومُ حُزنٍ وحِدادٍ، وقد تَبَدَّلَ فيه هناؤنا شقاءً ، وانقلبَ فرحُنا تَرَحاً .

ولقد أقمْنا ردَحاً منَ الزَّمن ، في هذا الوادى الخَصيب ، وقضَيْنا فيه عهدًا سعيدًا ، مرَّ بنا كما تمرُّ أشْهى الأحلام . ثمَّ دالَتْ دولتُنا ، ورمانا الدهرُ — فى هذا اليومِ الأسودِ — بفادِح الخطوبِ والمِحَنِ ... فقد رُزِئنا فى بناتِنا العزيزاتِ وكُنَّ مصدرَ سرورِنا وإيناسِنا ، ومرادَ آمالِنا وأمانِينا.

لقدقضَيْنا الصباحَ فى مَرَحٍ وسُرورٍ ، فى هـذا الوادى الجَميلِ ، الحَبيبِ إلى القُلوب . وها نَحْن أولاءِ : نَقْضى المَساءَ حزيناتٍ ، مُوجَعاتٍ مُقرَّحاتِ العُيونِ .

لقد أغارتِ الشقراواتُ عَلَى ديارِنا ، وانتَهَبْنَ ماتَرَكْنا ، مِنْ بَيْظٍ وأَطفالٍ أعِزَّاء علينا ، هم مناطُ آمالِنا ومَعْقِدُ رجائنا ، واتَّخَذْنَهُنَّ عبيدًا لهن وأرقَّاء ، ليؤدِّينَ — فى قريةِ الأعداء — أعمال الخَدمِ والعبيدِ ، وليس لنا من أملٍ فى عودةِ أبنائنا بعد اليوم ! ... »

فبَكتْ بناتُ « الشَّيْصَبانِ » جميعاً ، حين سَمِعنَ هذه الكلماتِ الدامية ...

وصمتَتْ « أمُّ مشغولٍ » لَحَظاتٍ يسيرةً ، ثم استأنَفتْ ، قائلةً :

« ليستْ هذه أولَ مرة يَدْهَمُنا فيها أولئك الأعداء . بل هى المرَّةُ الثالثةُ ، فيما أعلمُ . فقد أَلِفَتِ الشقراواتُ الخَبيثات أن يُغِرْنَ على وادينا ،

وينتهبن أسلابَنا ؛ ويُخرِّبْنَ بُيُوتَنا ، ويستعبِدْن أبناءنا وبناتِنا .

فما حيلتُنا الآن ؟ ليس لنا من حيلَةٍ إلا أن نُصلحَ ما خرَّبَتْه الشقراواتُ من قريَتنا ، و . . . »

فانبعثَ صوتٌ ضعيفٌ ، من آخرِ القاعةِ ، يقول : « عُذْرًا — يا سيدتى أمَّ مشغول — واغْفرى لى مقاطعتى إياكِ !

لقد تهدَّم نصف بيتنا . ويُخيَّلُ إلىَّ أننا غيرُ آمنين على حياتنا ، وحياةِ ذرارينا . ولن نَشعُرَ بُطمأنينَةٍ فى هذا الوادى ، فقد ألِفَتِ الشقراواتُ أن يُغِرْنَ عليه ، ويفاجِئْننا بأحداثهنَّ ، بين حينٍ وآخرَ . ألا يَجْدرُ بنا — إذَنْ — أن نبحثَ عن مكانٍ آخرَ ، نتخذهُ مقرًّا لنا فى غير هذا الوادى؟ »

فَصاحت النمالُ — كلُّها — قائلةً : « لقد أحسنتِ وأصبتِ ، وبفَصْلِ الخطاب نَطَقْتِ ! »

٢٦ — فى الوادى الجديد

فنهضت « مُّ مازن » قائلةً : « لقد اهتديتُ — فى هذا الصباح — إلى وادٍ خصيبٍ ، فى موقعٍ بديعٍ ، لا يبعدُ عنا كثيرًا ، وهُو فى آخرِ غابةٍ صغيرةٍ ، وأرضُهُ فى هذه الأيام طينيَّة رطبةٌ ، فهى أصلحُ الموادِّ لبناء جُدران بيوتنا ؛ لأنها قويةٌ لا تهدُّها الرياح .

ونحن — الآن — فى فصل البُرقوقِ ، ولدَيْنا مُتَّسَعٌ من الوقت ، لتشييدِ دُورِنا ، قبل حلول فصلِ الشتاء . »

فانبعثتْ أصواتٌ عِدَّةٌ ، قائلةً : « لقد أصَبْتِ فى اقتراحِكِ ، « يا أمَّ مازن » ، ونحن على رأيكِ فيما تقرِّرينَ . »

ثم استأنفتْ « أمُّ مشغول » : « ما دام اقتراحُ أم مازنٍ » قد لَقِىَ منكنَّ قَبُولاً حَسَناً ، فإنى أنصَحُكنَّ ألا تُضِعْنَ شيئاً من الوقتِ ، فيما لا طائلَ تحتَه .

وأرى أن تذهبَ طائفةٌ منكنَّ مع « أمِّ مازن » فى صباحِ الغَدِ ، عندما تُشرِقُ الشمسُ ، وتُبلِّلُ المُرُوجَ بالنَّدَى ، لتتعرَّفْنَ موقعَ الوادى الجَديدِ .

ولا يفوتُكنَّ — أيتها العزيزاتُ — أنَّ بناءَ بيت النملِ ليس من الهِناتِ الهيِّناتِ . فهل عرفتُنَّ ماذا يَجْدُرُ بكن أن تعملْنَه ، منذُ الآن ؟ »

فتقدَّمَتْ « أمُّ نوبة » إلى وسَطِ القاعة ، ثم قالت :

« إنى أعلمُ ذلكِ حقَّ العلم . فإن أولَ واجبٍ علينا ، هو أن نَحْفِرَ فى الأرضِ حُفَراً واسعةً ، حيثُ نُنْشئُ الغُرفَ ، ونُشيِّدُ الأرْوِقَةَ . »

فقالت « أمُّ مشغول » : « صدقتِ ، يا « أمَّ نوبةَ » .

فهل وعَيْتُنَّ ذلك ، أيتها الصغيراتُ العزيزاتُ ؟

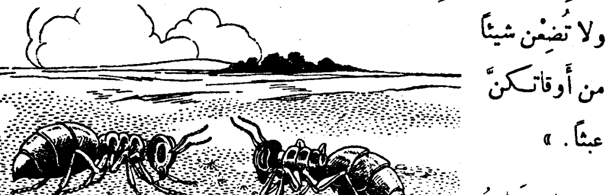
ولا يفوتُكن أنْ تُنْشِئْنَ — فى بيتنا الجديد — حجُراتٍ لتربية

الأطفال ، عَلَى غرار الحُجْرات التى أنشأناها فى بيتنا القديم . وليكن فيه قاعةٌ كبيرةٌ للاجْتماعِ . »

فقالت « أمُّ نوبةَ » : « نعم . يَجْدُرُ بنا أن نشيِّدَ القريةَ الجديدةَ ، على نَسْقِ تلك القريةِ القديمةِ ، فنجعَلَ فيها تعاريجَ تُعوِّقُ سيرَ المطر عن دخول القريةِ ونشيِّدَ طابقَيْن : واحدًا فوق الآخر ، حتى نَأمَنَ على ما نَدَّخِرُهُ فى قريتنا من البلَلِ ، ونشيِّدَ فيها منازلَ ودهاليزَ وحجُراتٍ معلَّقَةً ، لِنَمْلأها حبُوبًا وذخائرَ ، لفصلِ الشتاء القادمِ . »

فقالت « أمُّ مشغول » :

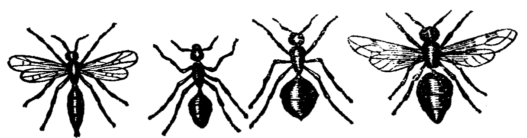
« لقد وهبَنا الله — سبحانه — آلاتٍ ثمينةً ، لأداء هذه الأعمال الجليلةِ . فلتحفِرْ كلُّ واحدةٍ — منكُنَّ — أرضَ القريةِ الجديدةِ ، بقوائمها السِّتِّ ، ولا تُضِعْن شيئًا من أوقاتكنَّ عبثًا . »



فصاح شَبابُ النمل :

« السَّمْعُ والطاعةُ لكِ ، يا « أمَّ مشغول » ! »

٢٧ — خاتمة القصة



ثم استأنفت « أمُّ مشغولٍ » قائلةً :

« لَقَدْ حانَ وقتُ التَّفرُّق ، بعد أن جَنَّ الليل ، وبقيَتْ لى كلِمةٌ ، أُفضى بها إليكُنَّ ، قبل أن يَنْفَضَّ هذا الاجتماعُ الحاشدُ :

لقد كانت فِكْرةُ الهجرةِ ، من اقتراحِ « أمِّ مازنٍ » : تلك النَّمْلَةِ الصغيرةِ ، التى فاقتْ — على صِغَرِها — كُلَّ نمالِ القريةِ ذَكاءً .

وَعِنْدِى أنها جديرةٌ أن تصبحَ مُهندِسةَ البيتِ ، ومديرةَ العملِ فى إنشائه . فماذا تَرَيْن فى هذا ، يا بناتِ الشيصبانِ ؟ »

فصاحتِ النِّمالُ كلُّها ، وهى ذاهبةٌ إلى غُرُفاتِ النومِ :

« أَصَبْتِ ، « يا أُمَّ مشغولٍ » ، وَوُفِّقتِ إلى الصَّوابِ ، وأُلْهِمتِ الرُّشْدَ والسدادَ . فلتحىَ « أُمُّ مازن » ! فلتحىَ « أُمُّ مازن » ! »

القصة التاسعة : العنكب الحزين

إلمامة بالنمل

« قبسنا هذا المقال النفيس من دائرة المعارف الفرنسية ، ليكون مرجعاً للمدرس في تدريس قصة « أم مازن ».

خواص النمل

النمل حشرات صغيرة من الفصيلة المجنحة ، وهو اجتماعي ، شديد الألفة بطبعه ، ومتى استثنينا منه أنواعاً قليلة شاذة ، رأينا سواده يخضع لهذا القانون العام ، وتنطبق عليه هذه الصفات .

وتتألف كل جماعة من النمل عادة من أنواع ثلاثة : النمل العامل ، والذكور ، والإناث المجنحة . تتلخص صفاته وخواصه العامة فيما يلي : وجسم مستطيل يتفاوت طولا وقصراً ، ولون غامق يتألف من أصفر وأحمر وأسمر وأسود ، أو مزيج من هذه الألوان كلها أو بعضها بنسب متفاوتة .

أما رأس النمل ، فهو يختلف تبعا لاختلاف أنواعه وفصائله ، وهو قطعة مفصلية ، ذات فتحتين ، إحداهما : فتحة صغيرة ، عند نقطة اتصال الرأس بالظهر ، وتسمى : الفتحة الخلفية . والثانية من الأمام ، وهي فم النملة ، وبها فكان قويان ، يتألف منهما — على الأغلب الأعم — شكل مثلث . وكلاهما محدد ، تشبه حافته الداخلية حد المنشار .

ولهذين الفكين — عند النمل — شأن أي شأن ، فهما عظيما الخطر ، لأنهما سلاحه القوي ، وعتاده الثمين الذي يستعين به على العمل ، فهو يستخدمه كما نستخدم المنشار والمقص والكماشة ، لنزع الأشياء وتمزيقها ، وكما نستخدم اليدين في حمل الأثقال وما إلى ذلك . وليس من عمل الفكين مضغ الأغذية ، فإن النمل لا يتغذى بغير المواد السائلة أو شبه السائلة ، وليس في قدرته أن يزدرد طعامه — كما نفعل — ولهذا نرى أن هذين الفلكين يؤديان أعمالا أخرى — كما أسلفنا — غير المضغ .

أجسام النمل

وعيون النمل منحنية ، وقلما تكون مستديرة ، أو منتظمة أي انتظام . وعيونه الملس على شكل مثلث عند الذكور والإناث . ويندر أن نراه عند العاملات التي لا تكاد ترى في رأسها — أحياناً —

غير واحدة فى منتصف جبهتها .

أما قرونه النائئة ، فهى متحركة إلى انحناء ، ترتكز على الحافة الداخلية لشرايين الجبهة .

ولا توجد الأجنحة إلا عند ذكور النمل وعذاراه . وبطنه منقسم إلى سبع حلقات للذكور ، وست للإناث والعاملات . وتنتهى كل رجل من أرجل النمل بخمسة أجزاء ، فى آخر جزء منها إبرتان بسيطتان محددتان . يفصلهما شعر قصير كثيف . ويتميز النمل المجنح ، الذكر عن الأنثى . ببطنه ذى السبعة مفاصل . ورأسه الصغير الكروى ذى العيون الملس . وللإناث أجنحة كذلك . ولكنها تزايلها بعد الإخصاب . سواء اجتثتها بنفسها ، أو انتزعتها منها العاملات .

وتمتاز النمال العاملة بتجردها من الأجنحة . وتشرك الإناث فى أن فى طرف بطنها غدتين سميتين ، تفرزان حمض النمليك . وبعضها مسلح بإبر ملس أو محددة . ينبعث منها السم فى الجرح الذى تحدثه . وقلما توجد هذه الإبرة عند جمهرة كبيرة من النمال الأخرى . فإذا وجدت فهى بسيطة تافهة لا خطر لها ، وإن كانت تنفث السم إلى مسافة بعينها ، متى لمست النملة عدوها بطرف بطنها .

طوائف النمل

وفى كل واد من وديان النمل نرى العاملات أكثر ما فى الوادى عدداً . بالقياس إلى الذكور والإناث التى لا تلتقى معًا إلا فى فترات بعينها من السنة ، مع استثناء الإناث المخصبات من هذه القاعدة . وثمة فرق كبير بين النمال فى أجسامهن . فقد يدق بعضها . ويصغر جسمه . ويتناهى رأسه فى الضآلة . بالقياس إلى جسمه ، بينا يكبر جسم بعض النمال الأخرى . ويضخم رأسه . ليتناسب مع حجم جسمه .

وفى وادى النمل تختلف أعمال العاملات وأعباؤها . فيناط ببعضها بناء الغرف والأجحار ، ويناط بالبعض الآخر تربية الديدان الصغيرة . وما إلى ذلك من الأعمال .

أما النمال الكبيرة الرأس ، فإن لها قرونًا قوية ، ومن سوادها يتألف جيش النمال الذى يحمى الوادى من غارة المعتدين . وقد أطلق على هذه الفئة من النمل . اسم : الجنود . وهى تقوم بحروب وانتصارات رائعة على أعدائها . وتأتى بالأسرى إلى واديها فتستعبدها ، وترهقها بكل ما تحتاج إليه فى واديها من الأعمال .

ويختلف النظام الغذائى للنمل ، سواء فى ذلك الأطفال الناشئون والشيوخ الفانون ،

اختلافاً عظيماً . ولا يشذ عن هذه القاعدة إلى أفراد غاية فى الندرة ، لا تبالى أن تأكل ما تلقاه فى طريقها من الأعشاب والمواد الحيوانية .

ومهما يكن من أمر ، فإن فم النملة — بطبيعة تكوينه — لا يسمح لها أن تتغذى بغير الأطعمة السائلة — أو نصف السائلة — التى تلعقها، أو تمر عليها لسانها حتى تلينها، وثمة لا تستطيع أن تأكل الأطعمة الجامدة . وقصارى ما تفعله بها أن تمزقها بفكيها ، ثم تمتص ما تحتويه — فى أثنائها — من عصير .

أما أشهى غذاء تؤثره النمال ، فهو أحشاء القنائص ذات العصير ، واللحوم الطرية ، ورحيق الأزهار ، ولب الفواكه الناضجة المشققة، والمواد العسلية واللزجة، والأشربة ، والسكر على اختلاف أنواعه ، وما إلى ذلك من ألوان الأغذية .

مزايا النمل

ولقد لفتت مزايا النمل — منذ أقدم العصور — جميع الباحثين الذين عنوا بدراسة الحيوان والحشرات ، واسترعت انتباههم ، وآية ذلك ما ورد فى الأقوال المأثورة عن الأنبياء والفلاسفة الأقدمين فى العصور الغابرة السحيقة . فقد تجلى إعجابهم بمزايا النمل . وإكبارهم مواهبه وافتتانهم بمثابرته وجلده ، وقدرته على العمل ، وذكائه ، وما ألهمه من تعرف بعضه بعضاً ، وتبصره وبراعته فى دقائق الهندسة ، واضطلاعه بجلائل الأعمال .

وقد نوه « شيشرون » — فى العام السادس بعد المائة قبل الميلاد — بهذه الميزات الباهرة ؛ وسار على مناهجه كثير من العلماء، وأقنعتهم بهذه الحقائق بحوثهم الصادقة الموثوق بها ، وتجاربهم التى أجروها فى القرون المتعاقبة ، حتى أصبحنا اليوم نؤمن بصدق هذه المزايا إيماناً وثيقاً لا يتسرب إليه الشك ، ونكبر ذكاء النملة وذاكرتها العجيبة . التى تهديها إلى تعرف بعضها بعضاً ، وتبادل المراسلات فيما بينها ، والتكاتف على أداء الواجبات والفروض المشتركة التى تضطلع بها جميعاً .

مساكن النمل

وتعيش أسراب النمل كلها — إذا استثنينا منها بعض شواذ نادرة — فى مساكن مشتركة ؛ يطلق عليها اسم : وادى النمل ، وهى — على الأغلب الأعم — مؤلفة من طبقات عدة ، ذات أروقة ، وغرف للتهوية ، وغرف للفقس وتربية البيض والعذارى ، وفى بعض الأحايين ترى فيها مخازن للزاد .

وقد قرر أحد العلماء عام ١٨٨٥ فى كتابه عن النمل ، ما يلى :

إن فن النمال — فى بناء مساكنها — يختلف باختلاف أجناسها ، فإن لكل نوع بعينه طريقة بعينها ، فى بناء بيته وتنسيقه . وتستطيع العين المجردة دائمًا أن تميز النملة العاملة، التى تحفر الغرف والأروقة والمساكن. ومما يسترعى الانتباه : شخصية المهندس الذكى من النمال ، وطرائقه فى هندسة البيوت ، وهى تخالف طرائق اليعاسيب والنحل فى بناء خلاياها . فإن مهندسى النمل لا تعمل بالمثلث والبيكار ، ولا تعنى بقياس الخطوط المستقيمة والزوايا . بلى هى تعمد إلى مسايرة ميلها وإلهامها، والاستسلام لغريزتها وابتكارها . وهى ترتجل — من فورها — نظام البيت الذى تسكنه ، وتنشئه مبتدعًا على غير نهج مرسوم ، أو خطة بعينها ، أو هندسة مقررة . وثمة نرى غرفها وأروقتها ودهاليزها وسراديبها كثيرة التنوع، مختلفة الأوضاع، متباينة الأشكال . ولكن مجموع البناء ، على اختلاف طرائقه وخططه ، مطبوع على الدقة والتناسق . وهو ينم — فى كل أوضاعه — على عبقرية مبتكريه ، وحذقهم فى الهندسة ، وتفننهم فى أساليبها .

وإن دهشتك لتشتد، ويتعاظمك العجب، حين تنعم النظر فى أساليب العاملات الصغيرات فى بناء البيوت ، واستعدادها الداخلى ، وتنوع الطرق والمعدات التى تلجأ إليها ؛ إذ تحفر أروقتها تحت الأرض ، وتوصلها بسطحها عند فتحة تعينها ، أو عدة فتحات . وقد تنتهز فرصة سانحة لبناء واديها تحت صخرة منبسطة تتحصن بها . وربما أنشأت على بيتها قبة أو تلة أو ربوة مكونة من مواد مختلفة ، كالحشائش اليابسة وأعشاب النبات وسوقه، وما إلى ذلك .

ومن النمال ما يحفر الخشب، أو ينقشه ، ويهيئ غرفه ! بعد أن يصنع عجينة يستعملها فى تنفيذ أغراضه ، وربما عمدت النمال إلى اتخاذ بيتها بين الأخاديد أو الأعشاب المرتفعة ، أو فى ثنايا أوراق الشجر الكثيفة الملتفة ، أو ثقوب الأشجار وفجواتها الطبيعية ، وما إلى ذلك . وقد يصل ارتفاع التلال والكثبان التى تأوى إليها النمال ، وتتخذ فيها بيوتها ، إلى علو متر أو مترين ، من القطر إلى القاعدة . وربما شيدت مرتفعات مماثلة — وإن لم تكن فى مثل هذا العلو — على طول الطريق أو موازية لسياج طويل من الأعشاب . وقد تنشئ مساكنها فى ثنايا الصخور المشقوقة وأسوار المنازل ، وربما أنشأتها داخل البيوت ، أو فى ثقوب الخشب ، أو فى جذوع الأشجار القديمة .

تلاقح النمل

وفى زمن بعينه من كل عام — يختلف تبعًا لاختلاف أنواع النمل — يخرج الذكور من واديهم جماهير وطوائف ، وتخرج الإناث متهيئات للإخصاب فى ذلك الوقت. فيطير الذكور فى أثرها ، ويلتقى الفريقان فى الجو ، ويتم هذا التلاقح — عادة — فى وقت حار .

ومتى كان الذكر أكبر من الأنثى بكثير ، لجأ إلى الإخصاب فى الهواء حيث تحمله الأنثى على ظهرها . فإذا تناسب جسمه وجسمها ، فإنه يقبض عليها ، وهى طائرة . ثم تتم عملية الإخصاب على الأرض . ولا تلبث عملية التلقيح — عادة— إلا بضع دقائق . ثم يأتى ذكر آخر فيلقح الأنثى نفسها مرة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإن الذكور — بعد أن تم تلقيح الإناث — تظل هائمة ، تعتسف الطريق على غير هدى ، وقد امتلأت نفسها يأسًا ، وأحست — فى أعماق نفسها — أنها قد أصبحت متبطلة ، عديمة الجدوى . ثم لا تلبث أن يقتلها الغم والأسى ، أو تلتهمها الطيور وسباع الحشرات !

أما الإناث فتهوى إلى الأرض — بعد أن تم عملية الإخصاب — وتقطع أجنحتها الضعيفة ، ثم تذهب النمال العاملة باحثة عن هذه الإناث ، فتجمعها ذاهبة بها إلى واديها الذى خرجت منه .

وإذا رأينا فى عالم النحل ملكة واحدة مخصبة ، فإننا نرى — على العكس من ذلك — فى وادى النمل كثيراً من الإناث المخصبات ، فى وقت واحد ، ومكان واحد . وهى تعيش جميعًا على أتم وفاق وأسعد عيش ، وتقوم العاملات بخدمتهن والعناية بأمرهن ، من غير أن تميز واحدة منها على الأخرى . وتظل النملة — بعد عملية التلقيح — مخصبة طول حياتها ، فلا تحتاج إلى تلقيح الذكور مرة أخرى . وتظل ثمانى سنوات أو تسعا وهى قادرة على البيض ، دائبة على تنمية عدد المواليد فى قرية النمل بلا انقطاع .

أما بيض النمل فهو يماثل — عند وضعه— حبوباً طويلة بيضًا ، أو صفرًا ، أو غامقة اللون ، ومتى وضعته الإناث المخصبات ، جاءت العاملات فجمعته ورتبته أكوامًا صغيرة . ولا تفتأ تلعقه ، حتى يكبر حجم البيض — بفضل عنايتها — ويشف لونه ، ثم يفقس ، فتخرج من كل بيضة دودة . وهذه الديدان مختلفة الأشكال تبعًا لأنواعها. ولكنها — على تباين أجناسها — عمى ، بيض ، فى جسم كل منها اثنا عشر جزءًا ، تبدو للفاحص المتأمل ، ورأسها أصغر

من جسمها بكثير ، وهو مائل إلى الأمام . أما قسمها الأعلى . فهو ضيق مقوس ينتهى بطرف دقيق . وأما أسفل جسمها ، فهو مستدير منتفخ قليلا . وليس فى استطاعة هذه الديدان أن تتغذى إلا إذا تعهدتها العاملات بالغذاء . ونفثت فى أفواهها عصيراً مغذياً مما تدخره فى بيوتها لهذه الذرارى الناشئة .

ولا تقتصر العاملات على هذا القدر من العناية ، بل تزيد عليها ، فتعنى بتنظيف هذه الديدان ، ونقلها من مكان إلى آخر فى أرجاء الوادى ، فى الأوقات المختلفة من النهار ، لتقيها غوائل البرد والرطوبة ، وتعرضها لأشعة الشمس الحارة التى تكسب أجسادها الحياة والقوة .

ومتى اجتازت الديدان دور النمو ، استحالت إلى عذارى . ولن تم هذا الدور قبل أن تنقضى عليها فترة تتفاوت بين شهر وتسعة أشهر . فإذا تم نماؤها ظهر جسمها عاريا ، أو ملفوفاً فى قشرة حريرية . تحوى — فى أثنائها — تلك الحشرات كاملة .

جماعات النمل

وجماعات النمل — فى أغلب حالاتها — جماعات بسيطة مؤلفة من أفراد متماثلين . وربما رأيت أفراداً من النمل متبطلين لاصناعة لهم ، ولا عمل يشغلهم . وليس فى قدرتهم أن يسهموا — مع أبناء جنسهم — فى الاضطلاع بعبء من الأعباء ، فهم لا يكلفون أنفسهم عناء البناء أو تعهد الديدان بالتربية . وقد يشتد بهم العجز والقصور ، حتى يعجزوا عن تغذية أنفسهم . وثمة نشأت حاجتهم إلى مساعدات وخادمات يقمن بأداء الأعمال المنزلية فى وادى النمل ومساكنه . وقد حفزتهم هذه الحاجة الشديدة الملحة إلى الإغارة ، لجلب الأسرى واستعباد الأرقاء . وهى لا تألو — فى سبيل ذلك — جهداً ، وتعنف وتشتد فى تحقيق رغباتها . فتستولى على العذارى ، وتغير على الديدان التى لم تخرج بعد من غلافها ، فتنقلها إلى مساكنها . ولا يلبث النمل الصغير أن يخرج من قشوره ، ثم يصبح طوع إرادة سادته المغيرين ، ويلبى أوامرهم ورغباتهم بلا تردد ، من غير أن يعرف أنه قد قسم له أن يكون فريسة اعتداء الجائرين ، وجشع المستبدين .

وهذه الطائفة من الجماعات النملية الغريبة ، يروى لنا التاريخ عنها غرائب خطيرة ، ويحدثنا عن عجائب البيوغرافية النملية التى تبده الباحثين الذين يطلقون عليها «جماعات النمل المختلطة» . وإنما أسموها كذلك ، لأنها مؤلفة من الرؤساء وأتباعهم من الأرقاء

المستعبدين ، حيث يعيشون فى واديهم على أتم وفاق .

وترى فى ذلك الوادى — عادة — نملة أو جمهرة من النمال المخصبات ، وإلى جانبهن العاملات ، فإذا حان فصل النتاج رأيت النمال المخصبة من الجنسين كليهما .

أما النمال التابعة المستعبدة ، فليست على الحقيقة — إلا عاملات ، لا هم لها إلا خدمة النوع ، والتفانى فى أداء ما تحتمه المصلحة ، وتوجيه نشاطها ومهارتها إلى خير هذه المستعمرة ، وخدمة الجماعة النملية ، دون أن يكون لها ، فى ذلك كله أى نفع ذاتى تصيبه من هذه الجماعة .

وللنمل صلات وثيقة ببعض الحشرات ، سواء منها ما يعيش فى واديه ، وما يذهب النمل لبحث عنه فى خارج الوادى ، ولعل أحب تلك الحشرات الخارجية إلى نفسه ، هى البراغيث ، التى يمتص النمل من أجسادها سائلا سكريًّا ، يرى فيه أشهى طعام يحبه ويؤثره على كل غذاء !

آراء بعض الباحثين

ويقول بعض الباحثين الثقات : إن النمل لا يخزن مؤونة له : وإنه يهلك فى أوقات البرد القارس أو ينتفخ ، ويقرر آخرون من الحكماء عكس هذا ، وقد وصفوا هذه الحشرة — منذ أقدم العصور السحيقة — بأنها رمز التبصر ، ومثال الادخار .

وفى هذا الكلام تناقض فى ظاهره ، وإن كان من السهل على الباحث أن يوفق بين هذه النقائض ، ويوائم بينها ، لاختلاف أنواع النمل وأجناسه ، فإن ما يصدق على فئة بعينها من النمل ، لا يصدق على غيرها من الأنواع . فليس من سبيل إلى الشك فى أن نمال المناطق القطبية والمناطق المعتدلة ، تخالف نمال المناطق الحارة أشد الاختلاف .

وإن الباحث المتأمل فى طبائع النمل ليجد — على الحقيقة — أنواعًا منه تسمى : « النمال الحاصدة » . وهى قادرة على تحمل البرد القارس ، والسعى إلى رزقها ، وجلب مؤونتها فى الشتاء ، كما يرى ذلك فى جنوب أوربا . فإن هناك نوعين ، يكدسان فى نهاية الوادى ما يدخرانه من الزاد ، فى غرف خاصة ، تحوى من الحبوب والغلال والنباتات شيئًا كثيرًا . وربما وجد فيها كثير من جنى الحقول والحدائق . لتكون زادًا للنمل عند الحاجة .

النمل والحرارة

وقد كتب أحد العلماء أن أول ما يمتاز به النمل — من الوجهة الجغرافية — اتساع

مساكنه ، وتعدد جماعاته ، وتنوع فرقه . وأن النمل يكثر تبعًا لاشتداد الحرارة . فكلما دنوت من خط الاستواء ، رأيت ازدياد أنواعه ، حتى لتبلغ فى المنطقة الحارة أقصى حد . ولا تكاد تصل إلى الدرجة الخامسة والستين من خطوط العرض ، حتى تختفى أنواع النمال قاطبة .

وقد اهتدى الباحثون إلى نحو ألفى نوع من النمال منها زهاء مائة وعشرين تقريبًا ، تعيش فى أوربا .

أما أقدم نوع عرف من النمال ، فهو النملة الشقراء ، وهى لا تكاد تعرف موطنًا لها إلا فى الغابات الكبيرة . وهذه النملة جريئة مشاكسة ، ميالة بطبعها إلى الخصومة واللدد ، مغرمة بالعداء والحرب . وهى تقذف بسمها إلى مسافة بعيدة ، تبلغ ستين سنتيمترًا ارتفاعًا .

وثمة نوع آخر غريب منها ، يستولى على وديان النمل ، بعد أن يطرد ساكنيها . وهناك نمال أخرى تعيش فى جوف الأرض ، ولا يكاد يعرف عن طبائعها شيء .

وهناك نوع من النمال ، يعيش فى إفريقية الاستوائية الغربية (سيراليون والكاب وما يجاورهما من الأصقاع) . وهى عُمْىٌ ، تتحاشى ضوء النهار ، وتكثر من الرحلات ، ولا تتخذ لها مقامًا ثابتًا ، وكلما نزلت مكانًا ، أو حلت محلة ، حفرت لها موئلا تحت الأرض بسرعة نادرة . وهى لا تمشى إلا فى الأيام الغائمة ، التى لا تطلع فيها شمس ، أو فى الأمسيات والليالى . وتؤلف ، فى أثناء سيرها ، كتائب هائلة ، ولا يصدها عن غايتها أى حائل ، ولا تثنيها أى عقبة .

وهذه النمال هى مصدر من مصادر الرعب الذى يستولى على زنوج إفريقية من سكان تلك القرى . فإنها تضطرهم فى أكثر الأحايين إلى مغادرة أكواخهم حين تغير عليهم . ولا يزالون يرقبون ابتعاد كتائبها بفارغ الصبر .

وهناك أنواع أخرى من النمال المنتشرة فى جميع أنحاء العالم لا سيما فى « فلوريدا » و « كلورادو » و « تكساس » و « المكسيك الجديدة » التى استرعت نظر « دارون » ، للمرة الأولى ، فى عام ١٨٦١ ، إذ نشر عنها أحد العلماء ملاحظاته العجيبة ، ثم توالى الباحثون فى درسها بعد ذلك .

وهذه الحشرات عجيبة حقًا ، فهى تستطيع أن تزرع الأرض ، وتبذر البذور وتحصد الزرع ، وتزيل من حقلها كل نبات آخر ، يعوق نمو تلك البذور .

نمال البرازيل

وهناك نمال مفترسة شتى ، كثيرة الأنواع ، تكثر فى « البرازيل » و « جوانة » وجميع أرجاء « أمريكا الوسطى » ، وهى رحالة ، بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة . فهى لا تقر فى مكان بعينه . وهى دائبة السفر من جهة إلى أخرى ، فإذا مشت سارت صفوفاً متراصة . وربما أوفدت من كتائبها فرقة كشافة لتستطلع الأرجاء المجاورة ، وتجوس خلالها وتفتش كل ثغرة فيها ، وكل ورقة ساقطة ، وكل عود من الحشائش . فإذا تم لها ما تريد ، بدأت الغارة شاملة عامة ، واقتحمت كتائب النمال كل ما يصادفها فى طريقها ، ومزقت ما يعترضها فى سبيلها من الحشرات والعناكب والديدان ، وربما فتكت أيضاً بصغار الثعابين .

فإذا اعترضها فى طريقها منزل مأهول ، اقتحمته كتيبة منها ، فشردت سكانه كل مشرد ، ولم يروا أمامهم إلا الفرار من هذا العدو الباطش المدمر .

ومهما تحدثه هذه النمال القوية المتوحشة من أضرار ، فإن ما ينجم عن إغارتها من الفوائد ، ينسى السكان كل ما تكبدوه من خسائر وأضرار ، فهى تفتك بالعقارب والعناكب ، والبعوض ، والثعابين ، والفأر ، وما إلى ذلك من الحشرات الضارة ، فتطهر المكان الذى تحل فيه تطهيراً . ولهذا يزعمون أن الأهلين — فى بعض هذه الأقاليم — يرقبون إغارة هذه النمال عليهم بفارغ الصبر . ويعدون مقدمها — على ما فيه من أضرار — نعمة وبركة ، وخيراً عميماً .

نمل العسل

وهناك نوع من النمال ، يعرف فى بلاد «المكسيك» باسم : نمل العسل ، وهو يعيش فى وديانه : جماعات مؤلفة من الذكور والإناث والعاملات والعاملين . وبعضه يشبه — فى مظهره — النمل العادى ، والبعض الآخر يخالفه ، لانتفاخ بطنه انتفاخاً شديداً ، وإنما كان كذلك لإفراطه فى الغذاء .

أما لون بطنه فهو شفاف عنبرى ، وهذا النوع بطىء الحركة ، لا يكاد يتحرك من مكانه . فهو يظل جامداً ملتصقاً بعضه ببعض تحت الأرض . وفى بطون هذه النمال شراب سكرى ، غير مبلور ، يماثل طعمه العطرى طعم عسل النحل ، ويقبل الهنود المكسيك على هذا الشراب السكرى ، فى شراهة عجيبة ، ويتحلبونه فى أفواههم ، كأشهى غذاء ، ويمزجون به بعض أطعمتهم لتكون من أفخر أنواع الحلوى .

النَّمـــلة

[لَوْحٌ مُخْتارٌ مِنْ كِتابِ « نَهْجِ البلاغَةِ » .]

أُنْظُرُوا إِلَى النَّمْلَةِ – فِي صِغَرِ جُثَّتِها، ولَطافَةِ هَيْئَتِها ، لا تَكادُ تُنالُ بِلَحْظِ البَصَرِ – كَيْفَ دَبَّتْ عَلَى أَرْضِها ، وصُبَّتْ عَلَى رِزْقِها : تَنْقُلُ الحَبَّةَ إِلى مَسْكَنِها وَتعِدُّها فى مُسْتَقَرِّها . تَجْمَعُ فِي حَرِّها لِبَرْدِها ، مَكْفُولَةٌ بِرِزْقِها ، مَرْزُوقَةٌ بِوَفْقِها (طاقَتِها وَكِفايَتِها) .

* * *

وَلَوْ فَكَّرْتَ فِي مَجارِي أَكْلِها ، فِي عُلْوِها وَسُفْلِها ، وَفِي الْجَوْفِ مِنْ شَراسِيفِ بَطْنِها (أَطْرافِ الأَضْلاعِ الَّتِي تُشْرِفُ عَلَى الْبَطْنِ) ، وَما فِي الرَّأْسِ : مِنْ عَيْنِها وَأُذُنِها . لَقَضَيْتَ – مِنْ خَلْقِها – عَجَبًا ، وَلَقِيتَ مِنْ وَصْفِها تَعَبًا .

رقم الإيداع	١٩٨٧ / ٢٣٤٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٧٩-٧

١ / ٨٦ / ٣٠١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)